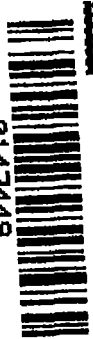


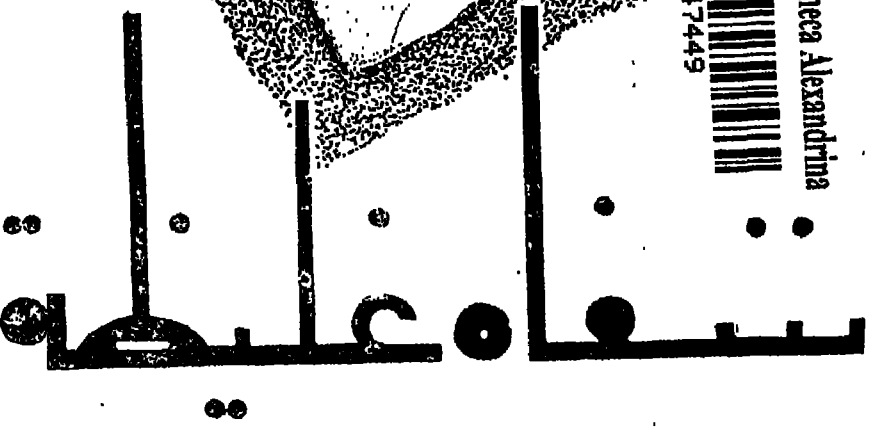
محمود نجوى



Bibliotheca Alexandrina



0147449



الطبعة الثالثة
سبتمبر سنة ١٩٥٩

شفاہ غیظۃ

من عادتی أن أتفادى من الذهاب إلى المصرف في الأيام الأولى من الشهر... ولكن اتفق لي أن قصدت إلى «المصرف الوطني» في مطلع الشهر لأصرف صكاً بخمسة جنيهات هي ما بقى لي على أحد عملائي من أتعاب قضية . وكنت في جمع زاجرٍ أدافعُ جهدي في سبيل الوصول إلى نافذة الشكوك وقد أخذتني الضيقُ كلُّ ما أخذ . فلمحت وأنا مدهوشٌ مغيظٌ فتاةٌ تشرق إلى النافذة بين صفوفنا غيرَ معنويةٍ بأحد . وأنطلق لسانى بلفظة احتجاج ، قابلتها الفتاة بإجابة تحدى خشنة ، فازددتُ سخطاً ، ولكن لم يُجد سُخطى نفعاً .

وبينا كنتُ خارجاً من المصرف ، وقد قبضتُ قيمة الصكِّ ، صدمتني شخصٌ صدمةً أزعجتني ، فالتفتُ فإذا بالفتاة عينها تُسابقني نحو الباب ، فرمقتها بنظرة تكراهٍ ، وهمتُ أن أصبح بها مهدداً متوعداً ، فعاجلتني بإبسامة رقيقة وهي تردد :

ألف معذرة ا... لم أقصد البتة أن أسيء إليك ...
فظفرتُ إليها ولساني لا يزال ناقماً ثائراً ، فلم ندع لي فرصة
التكلم ، بل واصلت قولها :

كنت قليلة الذوقِ معك مرتين... ولكني أوكد لك أنه
لم أفضل ذلك عن عمد... إنهم يرهقوننا بانتظار مُنتصر
مُشير للأعصاب ، ولدينا أعمالٌ لا تحتمل إضاعة الوقت ،...
كانت تتكلم وابتسامتها تزدادُ إشراقاً ونضارة ، فقلتُ
لها وقد مرت على في بسمة عابرة :

هذا صحيح ... إنهم يرهقوننا بالإنتظار ... ولكن
لاتنسني يا آنسة أنا في أول الشهر ... فللمصرفِ عذره ا
- أوافقك على أن للمصرفِ بعضَ السدْرِ لا العذرةَ كلتاه...
على الرؤساء أن يدبروا الأمر ، وأن يبدلوا أقصى الجهد في
سبيل إراحة العملاء ... لقد أضاعوا على محاضرة كان لزاماً أن
أستمع إليها في الجامعة ا...

- أطلبة أنت ؟

- في كاتبة الآداب ...

- حسن جداً ...

ورأيتني أسيرُ وإيائها في اتجاه واحد من الطريق ...
كانت يسمرأ على شيء من الملاحظة ترتدي ثوباً متواضعاً لا يدلُّ

مظهره على البشر ، وإن احتفظ بظل من الأناقة والذوق
السليم ... لا يميزها عن مثيلاتها من يصبأ بحسن عابر الطريق
ويامسين إلا سمة خاصة : شفتاها ... أجل شفتاها ،
بيت القصيد فيها ... كاتتا شفتين غليظتين لا أراهما
عنطقتين لحظة بل منفرجتين أبداً ، تسمحان لحظ أبيض من
الأسنان أن يكشف عن تالقه وتناسقه ... وإنك إذ تنظر
إلى الشفة العليا، منهما تلاحظ على الفور كأنها تحاول دائماً
أن تنأى بنفسها عن رفيقتها في إياه وترفع ، ولقد تركز هذا
الترفع والإياه في تنوء يتوسطها ، تنوء يمايل من وجوه
شسى حلامة الشدى يمتد بك بتكوينه النفسى ، ويرغمك على
أن تدمن النظر إليه ...

وكان قد قاربنا « شارع فؤاد الأول » عن كذب من
مشرب « الأمريكين ، فسمعتها تقول :
أترزع ركوب الترام من هنا ؟
— بل أقصد إلى « الأمريكين ، لاحتساء قدح من الشاي
قبل الذهاب إلى المحكمة ...
— اتفاق عجيب ... لى زميلة ستوافينى الآن فى المشرب
كى ترافقنى إلى الجامعة ...
— إذن طريقتنا واحد ...

قالت وقد خطرت على حياها ابتسامته وضاحته :

يلوح لي ذلك ا... .

وأردنا اجتياز الطريق ، فاعتبرنا سبيل من العربات
والناس يزحم بعضها بعضاً ، فددت لها يدي ، فأمسكت بها في
رفق ، واعتبرنا « شارع قواد » من جانب إلى جانب .

وقالت لي ونحن نصد إلى الطبقة العليا من المشرب :

أعلى موعد أنت في المحكمة ؟

- مع أحد العملاء ا... .

- أنت محام ا... ؟

- يلوح لي ذلك ا

فأرسلت ضحكة خفيفة تعالت على أثرها شفتها العليا في
اخلاجة رشيقة على حين أخذ التواء الذي يتوسط هذه الشفة
يتقلص وينبسط في جاذبية أخاذة

وأخرجت محفظتي وتناولت منها بطاقة قدسيتها إليها

قائلا :

قد تحتاجين إلى محام ... لا قدر الله ا... .

فتناولت البطاقة باسمته ، ونظرت فيها تقرأ اسمي ، وتقول :

تشرّفنا يا أستاذ ... سمعت اسمك قبل اليوم ... ما أسعدني

بهذا التعارف ا

— الشرف والإسعادُ لي يا آنسةُ .
وكنا قد بلغنا الطبقةَ العليا ، فدارت الفتاةُ بعينها في المكان
متفحصّةً ، ثم همهمت :
لم تحضر زميلتي بعدُ ...
ولم يكن في المكانِ إلا عددٌ قليلٌ منتشرٌ هنا وهناك ...
فقلتُ :

وهل تنتظرينها ؟ ...
— يحسنُ لي أن أفعلَ ...
— أيسودك أن يكونَ انتظارك لها على مائدتي ؟
فابتسمتُ ، ولكن ما أسرعَ أن تزايدتُ ابتسامتها وهي تقولُ :
أخشى عيونَ الفضوليين !
— وهل تُلقينَ بالأهلِ الفضولِ ؟
— كلاً ... ولكن ...
— ولكن ماذا ؟
— أليس من الزنقِ أن تجالسَ فتاةً رجلاً لم يَمْضِ على
معرفةِها به غيرُ لحظاتٍ ؟
— هذا موضوعٌ نستطيعُ أن نجعله مدارَ نقاشنا على مائدةِ
الشاي ! ...
— ولكن ياسيدي ...

- تكلمى ...
- إنها المرة الأولى التى أجلسُ فيها إلى رجل فى مُستَدَى
حام ...

- حتى إذا كان من أقربائك ؟

- وهل أنت من أقربائى ؟

- هى ذلك ا ...

- لم هذا التشبهُ ؟

- عام يرغبُ فى كسبِ قضيته ... ا

- وهل تحولتِ المسألة قضية ؟

- قضية صداقة ، أرغبُ فى توطيدها ا ...

- ماذا تقولُ زميلتى إذا رأتنى معك ؟

- ألا ترينَ عيونَ الناس قد بدأت ترْمقُننا ؟ ا

- هذا ما كنتُ أتوقَّعه ...

ودنونا من أقربِ مائدة وجاسنا إليها . وسرعانَ ما أقبل

علينا غلامُ المشرب ، فنظرتُ إليها وقلتُ :

- بم تأمُرينَ ؟

- بقدحٍ من الشاى ...

قلتُ للغلام :

قدحين ...

وأخذت الفتاة تطوّفُ بنظرٍ حاصمته فيما حولها وأنا أراعيها...

وسمعتها تهميم :

ما اسمجته ا...

ثم واجهتني بقولها :

إنه لم يحسّوّل نظره عنى لحظةً منذ قدّمنا...

— من ؟

— هذا الرّيحُ ... ا

قالت ذلك وأشارت بيديها إلى رجلٍ يدين له وجسنة
كالرغيف المُقَبَّب التّوهج ، ووصلت جملتها السابقة بقولها :

إنه من حمقى الأثرياء الذين يتخالون الدنيا طوعَ يمينهم ...

— أتعرفينه ؟

— ومن أين لي أن أعرفه ؟

— كيف علمتِ إذن أنه من حمقى الأثرياء الذين ...

فقاطعتنى فى لهجةٍ حازمة ، وقد زوت ما بين حاجبيها :

إن وجهه بذلك ينطق ا

— أنتِ دقيقةٌ الملاحظة ...

وأقبل غلامُ المشربِ بالشاي فوضعه أمامنا ، فلأت لها

قدحها وملاّت لى قدحى ، ومضيتنا نجرعُ الشاي على مهل ،

وأخرجتُ علبةَ لفائفٍ وقلت :

أسمحين ؟

— دخنن كما تشاء ، ولا حرجَ عليك ...

— وأنتِ ؟

فوجدتني بنظرةٍ عتابٍ قائلةً :

سيدي ا ...

— لا تؤاخذيني ...

وتناولتُ لفاقةً وأخذتُ أدخنتها لحظةً في صممت . ومرّت
أمامنا الرجلُ البدين ذو الوجه المقيببِ يدرجُ في جسدي
ومشقة . فألقي علينا نظرةً سانحةً وتابع سيره ... وسمعتُ
الفتاةَ تمنم :

يا للوقوفِ ! ...

— حقاً إنه لسمجٌ ...

— أما لاحظتِ كيف كان ينظر إلى ؟ ... لا أحتملُ رؤيةَ هذا

الضربِ من الناسِ ! ... إنهم يمثلون أمامي ذلك النفرَ البائدَ

من أمراءِ الإقطاعِ ... لا تؤاخذني ا ...

— على أيِّ شيءٍ أوأخذكِ ؟

— قد يكونُ في سمّتي على هذا الضربِ من الرجالِ ...

— وهل ترينني من هذا الضربِ ؟

فضحكتُ في خفةٍ وقالت :

لا أقصد ذلك، ولكن يجب أن أصرّح لك بأنى أمقت هؤلاء الأثرياء المتقاعدين ذوي رؤوس الأموال الذين يمتصّون دم الشعب...!

— كلامٌ وجيه ...

— إذن أنت من أنصار الاشتراكية ...

— وهل قلت ذلك ؟

— أىّ مذهب اجتماعي تعتقّه إذن ؟

— لم ألقِ على نفسي هذا السؤال حتى الساعة ! ...

— أنت متعب ... !

— أشكرك لك ! ...

ونظر كلٌّ منا إلى الآخر ، ثم استرسلنا في قهقهة عالية وجدّسني أثناءها أرنو إلى شفتيها الغليظتين ، وهما تلتطمان وتندافعان ، وأرقب في شعف ذلك التواء الجبل ، حتى ودّدت لو طالت ضحككها وقتاً ...

وسمعتها تقول :

اعترف بأنك غير صريح ...!

— قد يكون ذلك ...

— أما أنا فعلى العكس صريحة جداً ...

— هذا حقّ ... إذ أعلنت لي في وضح النهار أنك تميلين

إلى النظام الاشتراكي !

— أَلستُ على صوابٍ في هذا الميل ؟... ألا توافقُنني على أن
التوزيع الاقتصاديّ في المجتمعِ الراهن غير عادل ؟
— أوافقُك ..

— بلسانِك وحدَه ؟

— بل بقلبي ا

— إذن لقد استطعتُ أن أجتذِبَكَ إلى صَفِي ا
قلقتُ في لحظة هَيْئَةٍ :

أوَ كنتِ تظنّينَ أنكَ غيرُ قادرةٍ على اجتذابِي ؟ ...
فأسبَلتُ جفنيها، وهي تقول في صوت لين المكاسِر :
يبدو لي أنك سهلُ الانقياد سريعُ التأثرِ ا ...
قلقتُ لها وعيناي لا تفارقان شفّتيها :

لا في كلِّ الأحيان ا

وكانت يَدُها على المائدةِ تعبثُ بملعقةِ الشاي ، فدَدتُ
يدي وأطبقتُ كفي على راحتيها ، فاجتذبتُ يَدَها في غير
عُنف ، وألقتُ بنظرةٍ خاطفةٍ على ساعةِ الحائط ، ثم نهضتُ
وهي تقول :

لقد تأخرتُ زميلتي عن الموعدِ ، وقد أطلتُ في انتظارِي
إياها ... يجبُ أن أغادرَ المكانَ .

— أيكونُ قد بدرَ مني شيءٌ ساءكِ ؟

— أنا شاكرةٌ على كلِّ حالٍ حُسْنِ ضيافتك ...

— أنا آسفٌ إذا كنتُ ...

— لا يُساورك من ذلك شيءٌ ...

ومدَّتْ إلى يدها وهي تبسمُ ، وقالت :

إلى اللقاء ياسيدى ...

— إلى اللقاء يا آنسةٌ ...

واتجهتْ نحو السَّلمِ ، وانحدرتْ عليه مُسرعةً ، وعُدَّتْ إلى مقعدى ، وأخذت الشَّفَتانِ الغليظَتانِ ذَوَاتا التُّنورِ اللطيفِ تراءيانِ لى فى كلِّ لحظةٍ ... ولا أدرى كم مضى على من الوقتِ وأنا فى جِلسَتى هذه . ولكنَّ ظُهورَ غلامِ المَشْرَبِ أُملى أيقظنى من حُلُمى . وعلمتُ أنه جاء ليقبضَ ثَمَنَ الشاى ، فدفعتُ يدي فى جيبِ سُترتى ، ولشدَّ ما كان عَجَبى إذ لم أجدْ مَحْفَظَةَ نقودى فى مكانِها ، وأسرعتُ أبحثُ عنها فى جيوبى الآخرِ وأُمنعُ فى البحثِ ، ولكن على غيرِ طائلٍ ... أين اخفستُ ؟ ... ومن أخذها ؟ ... ولحمتُ فى خاطرى صورةً صاحبةِ الشفاهِ الغليظةِ ... أممكِنُ هذا ؟ ... وعدتُ أبحثُ ثانيةً ... لم يسلبنى المَحْفَظَةَ أحدٌ فى الشارعِ ... لنى على يقينٍ من أنها كانت فى جيبى حينما دخلتُ مع الفتاةِ فى هذا المكانِ ... ونظرتُ إلى غلامِ المَشْرَبِ ، وقلتُ

مردداً في حدة :

لقد أخرجتُ المحفظةَ أمامها ... أعطيْتُها بطلاقي ...
هذا مؤكداً ...

فنظر إلىّ في حيرةٍ وقال مجمعا :

ولكن ... ثمنُ الشئِ يا سيدي!

— أنظنُّ أن محتملَ أيها الغيِّ ؟

— العفو ... العفو ... إنما ...

ودسستُ يدي على الفورِ في جيبِ صِدَارِي ، فألقيتُ
معي لحسنِ الحظ من النقودِ الصغيرة ما يسفي بما هو
مطلوبٌ ، فألقيته إليه وخرجتُ أعود وأنا أكرُّرُ :

المحتملُ ... الماكرةُ ... سأدرِكُها ... وسأسألُها إلى
رجال الشرطاة ...

وارتدتُ المنطقة حولَ الأمريكين ، أتصفحُ السابلةَ وأتفقدُها
بينهم وقتاً غيرَ قصير ... ولكن بلا جدوى !
واقصدتُ في النهاية إلى مكانٍ عملي وأنا محققٌ ناثراً ...

* * *

وفي اليوم التالي بينما كنتُ في مكتبي أقلبُ بعضَ المجلاتِ
الأوربية المصورة استوقفتُ نظري صفحةٌ مكتوبٌ في رأسها :
« مسابقةُ الشفاه » ، تحوى مجموعةً صورَ مختلفةٍ لشفاه بعضِ

الغايات الأمر يكيات من كواكب «السينما»، وقد وضعت جوائز لمن يكشف عن صواحب ما ته الشفاه . ووقع بصرى على قدم غليظ منفرج الشفتين يتوسط العليا منهما فتوه ملحوظ ... فضيت أرنو إليه طويلا . ولم ألبث أن اتزعت الصفحة من الهجة وقصصت منها الجانب الذى يشتمل على صورة ذلك القسم ... وقذفت بما بقى من الورقة فى سلة المهملات ، وتناولت معجم «أبوت» ، الأثرى الغارق دائما فى سباته العميق على مكتبى ، وأودعت حايا صحائفه تلك القصاصة ...

وكثيراً ما ألتفتنى بعد ذلك أثناء درسى لقضية من قضاياى آخذ المعجم شارد الذهن ، وأمضى عجملاً أقلب صحائفه ، وسرعان ما أجد أمامى صورة «الشفاه الغليظة» ، تحديقاً فى فأحديق فيها . ومن ثم يفيض على نفسى إحساس بهيج يفيض بى إلى أحلام عذاب !

وترادفت الأيام ... وكنت يوماً فى «قسم البغالة» ، أجادب «المأمور» ، الحديث فى قضية من القضايا ، فتعالت بغتة أصوات «خارج الحجر» ، وفى لحظة اقتحم علينا المكان رجل «جاوز سن» الشباب يبدو من هيئته أنه من ذوى المعاش ، وهو

يجذب فتاةً من يدها، وينعشها بأرذلِ النعوت ، رامياً لإياها
بالسرقة والاحتيال ، على حين كانت الفتاة تُنكرُ في تعنتٍ
ومكابرة ، وتحاولُ أن تخلّص نفسها منه .

وبرزت أمامي في الحال « الشفاهُ الغليظةُ » ذاتُ التواءِ
الملحوظ ، وعرفتني على التّوّ ، وسرعانَ ما وجدتها تتخاذلتُ
فأمسكتُ عن الكلام ، وقد طغى على محياها امتقاعُ ...
وكان الرجل ما برحَ قابضاً على يديها ، يسوقها في عنفٍ إلى مكتبِ
« المأمور » ، ولسانه ينهمرُ بسيلٍ من سبٍ به البذيء . فتقدمت
منه وأخليتُ يديها من يديه ، وقلتُ له :

تذكّرُ يا سيدي أنك في دار الشرطة ... شأنُ الفتاةِ الآنِ
موكولٌ إلى المأمور .

فنظرَ إلى الرجلِ نظرةً عاتبةً وقال في تأتأةٍ :
لقد سرقتُ حافظةً نقودي حينما كنتُ في القهوةِ منذُ أيامٍ ،
وقد اختفتُ ولم أعرِ عليها في ذلك الوقت ، واليومَ وجدتها اتفاقاً
في الطريق ، فقَبضتُ عليها بمعاونةِ رجالِ الشرطة ... يجبُ
أن تعيدَ إليّ ما سرقتُه ... إنها محتالةٌ ... ماكرةٌ ...
لصّةٌ ...

فلم تعترض على كلامه الفتاةُ ، بل ظلمتُ ممسكةً ، وهي تنظرُ
أمامها نظراً ثابتاً .

فقلت للرجل :

ماذا أخذت منك ؟

— ثلاثمائة وثلاثين قرشاً ... غيرَ ثمنِ المحفظة !

فلمتُ على المأمور ، وأسرتُ إليه :

إني أعرفُ هذه الفتاة ، وأمرها يهمني ، فإذا قبلتَ ضماتي ،

وأطلقتَ سراحها كنتُ لك شاكرًا ...

واللحمتُ عليه ، وكان من يتقون بي ، فقبلَ ... فالتبذتُ

على الفورِ بالرجل مكاناً قصيباً ، ونقدتُه ما طلب ، وخرجتُ

أخذاً بيد الفتاة .

وما كدنا نتركُ «القسم» حتى رأيتها تُكرِّرُ في الضحكِ

على حين بغتة ، فنظرتُ إليها مغضنَ الجبينِ ، وقلت :

حقاً إنه موقفٌ يشيرُ الضحك !

فنظرتُ إلى «بؤوخر» عينيها وقالت :

أتريدني أن أبكي ؟

— كان الأجدرُ بكِ على الأقل أن تصمتي !

— ولم ؟

— ألا تستشعرين الخجل ؟

— أتبغيني أن تلقى عليَّ محاضرةً في علم الأخلاق ؟

— وهل تجدي معك هذه المحاضرة ؟ ...

فأطلقت قهقهةً ، وقالت :

ليس لدى من الوقت ما يسمح لي بسماع أمثال هذه
المحاضرات !

فضغطت يدها في عنف ، وقلت :

كفى عن هذرك ... وإلا ...

فصوبت إلى نظرة حادة وقالت :

— وإلا ماذا ؟

— أتظنين أنني غير قادرٍ على تأديبك ؟

— ومن تكون أنت حتى تبيع نفسك هذه السلطنة ؟

— أبيعها نفسي بمحض إرادتي !

فتضاحكت معايشةً وقالت :

ولكنني لا أبيعها لك !

فازددت في ضغط يدها وقلت :

كفى عن هذا الهذر ... لن تجدي من ورائه إلا
أسوأ العواقب ...

فصاحت وهي تشد يدها :

ليس لك شأنٌ بي ... اترك يدي ... أسمع ؟ !

فلم أعبأ باحتجاجها ، بل تماديت في ضغط يدها ، فضعفت

صوتها واختلج ، والتمعت عيناها ويريق الدموع ... وسمعتها تنغمم :

رجلٌ قاسٍ بلا قلبٍ ا...
وانطبعت على شفقتها مظاهرُ الذلِّ والآنكسار ، فأكسبتَها
منظراً خلاباً...
ووجدتُني أخففُ الضغط عن يدها ، وواصلتُ كلامها
قائلةً :

ماذا تريد مني ؟ ... قل ... ماذا تريد ؟ ا...
فأجبتُ :

أريد أن أقومَ من اعوجاجِك ، وأن أصلح من نفسِك ا
- ولم كلُّ هذا يا حضرة ؟

فقلبي متباطئاً وجيناي لا تفارقان شفقتي :

إنه عملٌ من أعمالِ الخيرِ أقدمهُ إلى الإنسانية ا

- الإنسانية ؟ .. وهل تعنيك الإنسانية إلى هذا القدرِ ؟

- يلوح لي ذلك ... ا

- عجيبٌ أمرُك ... أتعلمُ كم مالا أضعت حتى الساعةِ

في سبيلِ هذه الإنسانيةِ ؟

- أعلمُ ا

- وقد تفقدتُ أكثرَ من ذلك في المستقبلِ ا

- محتملٌ هذا ...

- حباً في الإنسانيةِ ؟ ا

— أرغبُ في الأخذِ بناهِرِ مخلوقِ تادِسِ وانتشالِهِ من
هاويةِ ترَدَى فيها... —

فحدّقتُ في وقتاً صامتةً ، ثم قالتُ :

أتظنُّ أني لِصّةٌ ؟

فابتسمتُ قائلاً :

— معاذ الله !

— ظنٌّ ما نظنُّ ... لماذا تتمتعون أتمّ بالمالِ ، وفقيرة

مثل لا تلقى ما يسُدُّ الحاجةُ ؟

— عدنا إلى الاشتراكية ... —

— أنا لم أسرقُ .. إني أنالُ حقاً مشروعا ... إني أعيدُ إلى

طبقتنا المهيضة الجناح بعضَ ما سلبتُموها من رزقِ ا

ومضتُ في حديثها محتاجة بالغة السطوة ، وكنا نسيرُ جنباً إلى

جنب في خطأً وئيدة ، فتركناها تفرغُ ما في جعبتها ، حتى إذا

بلغتِ النهاية قلتُ لها :

إنك لقويةُ الحجّةِ ا

— أتزأبي ؟

— كلاً ... —

— ما زلتِ تحسبني لِصّةً ؟

— لا أريدُ أن أحسبكِ كذلك ا

— لا تريد ١٤... —

ووقفت قبالي متفحصة ثم أردفت قائلة:

ولماذا لا تريد؟

— هكذا... —

— ولكنني أؤكد لك أنني لست لصة، إنني لم ألدِمُ علي

ما أقدمتُ عليه إلا لأسباب قاهرة!

وأمسكت برهة... ثم استأنفت حديثها:

أسبابٌ مشروعة طبعاً!...

— هذا محتَمَل... —

— لي أبٌ مصابٌ بمرض لا يُرجى شفاؤه، وأربعة من

الإخوة والأخوات كلهم أطفال، وأنا وحدي أعولهم... إن

عملي المضى في حياكة الأتواب لا يدرُّ عليّ إلا النزر الذي

لا يغني!

— ومن أجل هذا أرغبُ في إصلاح أمرِك!

— أليكَ عملٌ أستطيعُ أن أقوم به؟

— آملُ أن أجدَ هذا العمل... —

— مانوعُه؟

— لا أستطيعُ أن أحدثَه الآن، ولكن أَعِدُّكَ بأن أبذلَ

ما في وسعي لأهبيكَ عملًا نافعاً...

فانطلقت تقلبُ في وجهي عينيها المتساملتين ، ثم قالت مهممة:

أتسقى بي ؟

- أرغبُ في ذلك !

فابتسمت وقالت :

سأزورك في المكتب ...

- إنى منتظرُك ... هاك عنوانى ...

ودسست يدي في جيبى لأخرجَ المحفظةَ ، ولكنها بادرتنى

بقولها والابتسامة ما زالت تموج على عيهاها :

إنى محفظة يطاقتك التى أعطيتها فى الأمريكين .

- حقاً ؟

فقلت فى صوتٍ خافتٍ ناعم النبرات ، وهى تعبتُ

بأصابعها :

إنها بطاقة ميمنة ... لا أفرطُ فيها ... أتريدُ أن تراها ؟

- إنى أصدقك ...

- شكراً لك ... والآن يجبُ أن أمضى إلى البيت ... أنا

أسفةٌ إذسيبتُ لك متاعبَ كنت فى غنى عنها ... كل ما فقدته

من مال لاجلى ساعيدته إليك حتما ... كن على ثقة بأننى لستُ

من الخبثِ وسوءِ الطويةِ بالدرجة التى يتوهمها الناسُ فى ...

ستجدُ على الأيامِ مصداق ذلك !

— ما أشدَّ رغبتي في تحقيق هذا! ...
— سأزورك غداً في المكتب ... إذا لم تجد لديك من
ذلك مانعاً ...

— في أيِّ وقت؟

— قبيلَ الظهر ...

— سأنتظرك ...

وهدتُ إلى يدها فاحتوت كفي راحتها . ومكثت قبالتها وقتاً
صامتاً أعمى مفاتنها، والغبطة تشيعُ في نفسي، ثم همستُ :
أَتقبَلين أن نتناولَ الغداءَ معاً ؟

— كما تريدُ ...

— أشكرُ لك ...

— إلى الملتقى ...

— أنا في انتظارك ...

وتركتني وهي تبسمُ في عنوبة ... وطالب لي أن أعودَ إلى
منزلي مترجلاً، وسرتُ في خُطواتِ هينة . وكنتُ أُنساء
الطريق أدخُنُّ اللفائفَ واحدةَ إثرَ أخرى وأنا هَيَّبانُ
أفكرُ فيها مرَّتين الساعةَ مع ذاتِ الشفاهِ ... وساءتُ نفسي
مرات :

هل كنتُ مصيباً في موقفي منها ؟ ألم يكن الأجدرُ بي

أن أتركها في القسم ، بين يدي الشرطه وأن أعزز الشهمة
منها عقاباً لها وردّ عاً لميلاتها ؟ ...

وهنا طفقت أناقش نفسي في فلسفة العقوبة ، وما هي أقوم
السبل إلى إصلاح المجرم على ضوء المباحث النفسية الجديدة
وهداية مبادئ الإنسانية الرحمة . وانتهيت من هذا النقاش
إلى نتيجة اطمأننت إليها ، وهي أن ينبغي مع هذه الفتاة البائسة
خيراً ما يفعله امرؤ كبير القلب ، إنساني المزاج ، وأتى جديراً
بأن ألتزم هذا المبدأ في حياتي أبداً ...

دخلت منزلي وتناولت عشاء خفيفاً . ثم قصدت إلى مكنتي
لأدرس بعض القضايا فلم أجد ميلاً إلى العمل ، بل أحسست
تراخياً ورغبة في التدد على المقعد الفسيح ، ففعلت ...
وامتدت يدي إلى مُعْجَم «أبوت» وأخرجت صورة
«الشفاه الغليظة» ومضيت أنأمسها ملسياً ... إن لها أبا مصاباً
بمرض لا يرجى له شفاء وإخوة وأخوات أطفالا ... إنها
لتنفضي الليل منكبة على الحائكة ... وماذا تربح من هذه
الحائكة ؟ كثيراً ما تدفع الفاقة بالمرء إلى مهاوى الجريمة ، ومن
ثم أيهب القانون مطالباً بالعقاب ... حقاً إن في الأوضاع
الإجتماعية لمظالم فادحة يجب القضاء عليها ... !
وفي صباح اليوم التالي نهضت من فراشي ، وقد اعتزمت

أن أتخلفَ عن المحكِّمة ... ألا يحقُّ لي أن أمتنحَ نفسي لإجازةَ
يومٍ واحدٍ؟ أفحشتمُ عليَّ أن أستقبلَ كلَّ نهارٍ تلكَ الوجوهَ
السُّمَّجَةَ؟ وأن أتلقَى هذه الابتساماتِ السخيفةَ التي تحمِّلُ
طابعَ الرِّياء ... ؟

وطلبتُ زميلِي في التليفون، وأفهمتهُ أني منحرفُ المِزاجِ ،
فعليه أن يحلَّ محلِّي في المحكِّمة ... وأوصيتُ الطاهيَّ أن يهتبيَّ
لي غداً طيِّباً ، وخرجتُ إلى السوقِ فأتيتُ بالوانِ ممتازةٍ من
المُشهِبيَّاتِ والحلوى ...

مَكَثْتُ أَتَنْظَرُ قَدومَهَا ؛ و طال انتظاري ، فقلقتُ
وساورتني ظنونٌ شتى .

وطال انتظاري أيضاً . وألحَّ الطاهيُّ في سؤاله :

متى يؤدِّنُ لي بتقديمِ الطعامِ ؟

وحلَّت الساعةُ الثالثةُ ، ولم يظهرْ لذاتِ الشفاهِ

الغليظةِ أثرٌ ... !

* * *

وتعاقبت الأيام . وبينما كنتُ في مكنتي وقتَ الأصيلِ مع
بعضِ عملائي ، منصرفينَ إلى دَرَسِ قضيةٍ مهمَّةٍ ، إذ دقَّ
« التليفونُ » ، وكان المتكلمُ : « مأمورُ قسمِ البغالةِ » ، فأخبرني
بأن الفتاةَ التي ضَمِنَتْهَا ضَبَّطَتْ متلبسةً بالسرقةِ ، فهممتُ

أن أصبحَ به أنِ احْبِسُوهَا ، فقد نَقَضْتُ مِنْهَا يَدِي ،
ولكن وجدْتُني على الفورِ أَلِحُّ عليه في أن يبعثَ إليَّ بها على
عَجَلٍ ، وعلى إصلاحِ الأمرِ ... فلم يقبلُ ، فرجوتُه مستعظفا
أن يفعلَ ، فهي فتاةٌ مريضةٌ . في طبعِها شذوذٌ ، يعالجُها طبيبٌ في
الأمراضِ النفسيةِ ، وإنهما من أسرةِ كريمةٍ ، ولأبيها مكانةٌ ملحوظةٌ
في الهيئةِ الاجتماعيةِ ؛ فن واجِبنا أن نصوِّته عما يَشِينُهُ ...
وأطلتُ في حديثي ، فأكدتُ له أننا سنبايعُ في رِقَابَتِهَا وَمَنْعِ
اتصالِها بالناسِ ، وأفضتُ له في ذلكَ حتى قَبِلَ ...

وانتقتُ إلى عملائي معتذراً عن مواصلةِ العملِ ، فأنصرفوا
مُرْغَمِينَ متدمِّرينَ . وانطلقتُ أجولُ في الغرفةِ بِحُطْطَا
مضطربةٍ ، وأنا أجمجمُ :

سترى ... سترى ... !

ولكنني لم أكنُ أعلمُ ما أفلُ معها . كان رأسي مشحوناً
بمختلفِ الصُّورِ المخلطَةِ المتشابكةِ ، لا أستطيعُ أن أتبيِّنَها
أو أميِّزَ بينها وعجبتُ من أمرِي : كيف رَضِيتُ أن أصوغَ
للأمورِ هذه الأَكاذيبَ العجيبةَ ؟ وكيف أسعفتني بديهيَّتِي

على اختراعِها بمِثْلِ هذا اليسرِ ؟

وظللتُ على حالي تلكَ حتى قُرعَ البابُ فوثبتُ إليه
أفتحه ، ورأيتها أمامي خلفها شرطِي ، وسرعانَ ما صرفتُ

وجذبنيها من ذراعيها ا

وسمعتها تقول :

لماذا أتوا بي هنا؟

فميتها بنظرة محتدة ، وقلت :

يا لك من سيئة الطبع خبيثة ا

— أراك نائراً ؛ لآتي لم أؤرك كما وعدتكم ...

— أو تظننني أني صدقتك ؟

— صدقتني ، وانتظرت مقدمي بفارغ صبر ...

— أنا انتظرتك ؟ ... أنا ؟ ... هل بلغت بي العباوة أن أهم

بشخص حقير مثلك ؟

-- أجل ، أنت مهم بهذا الشخص الحقير ؛ مهم به أشد

الاهتمام ... ا

— أخرسبي ...

— وأقد تعمدتُ إلا أحضر ؛ لأدفعك إلى انتظارى ...

— يا للوقاحة ا

-- أما سب اهتمامك بي فأمره لا يخفى عليك ... إنك

تهوانى .. أجل تهوانى ا ...

فصحت وقد أقبلت عليها متمسراً :

أنا أهواك ؟ ... أنا ... وهل فيك شيء يُحسب ؟

-- أنتَ مُدَلَّةٌ بِي ... ولكنني لِنِ أُنِيْلِكَ مُدَسَّغَاكَ ...
حتى القبلَةُ الصغِيرَةُ سَأَمْنَهَا عَنْكَ ا
أنتَ أَعْجَرُ مِنْ أَنْ تَمْنَعِي عَنِّي شَيْئًا ... ولكنني زَاهِدَةٌ فِيكَ
لِحِقَارَتِكَ ... مَا أَشَدَّ اقْتِفَارَكَ إِلَى مَا يَجْتَذِبُ الرَّجُلَ ا

-- إنك تَذُوبُ شَوْقًا إِلَى لِمِ شَفَاهِي ا ...
-- شَفَاهُكَ ؟ ... هَا ا ... هَا ا ... شَفَاهُكَ الْغَلِيظَةُ الْمَتَوَرِّمَةُ
الْمُدَلَّاةُ كَشَفَاهِ أَقْبَحِ الزُّنُوجِ ... ؟
-- لِنِ أُنِيْلِكَ شَرَفَ اتِّسَابِهَا أَبَدًا . سَتَظَلُّ مَحْرُومًا لِإِيَاهَا
مَهْمَا يَسْتَعْرِ طِيبُ غِرَامِكَ ، وَتَتَأَجَّجُ نَارُ شَوْقِكَ ا
-- غِرَامِي ؟ ... شَوْقِي ؟ ... سَأَرِيكَ كَيْفَ أَنَا مَغْرُومٌ بِكَ
مَشُوقٌ لِبِكَ ... سَأَرِيكَ ا

وَإِخْتِطَفْتُ خَيْرُورَانَةً كَانَتْ مَلَقَاةً عَلَى أَحْسَدِ الْمَقَاعِدِ ،
وَأَمْسَكْتُ ذَاتَ الشَّفَاهِ ، وَانْهَلْتُ عَلَيْهَا ضَرْبًا ، وَرَأَيْتُهَا تَحَاوِلُ
الْمَقَاوِمَةَ بِأَدْوَى بَدَنِ ، وَلَكِنهَا وَجِدَتْ مِنِّي مُؤَدَّبًا عَنِيفًا عَنِيدًا
صَعَبَ الْمِرَاسِ ، فَكَتَفْتُ بِأَنْ تَحْمِي جَسْمَهَا مِنْ لَسَعِ الْعَصَا
الْمَرْنَةِ مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ... ثُمَّ انْطَلَقْتُ تَسْتَعِظْفُنِي
وَتَسْتَرْحُمُنِي ، فَلَمْ أَسْتَجِبْ لَهَا ، بَلِ ظَلَلْتُ جَادًا فِي الضَّرْبِ فِي
مَهَارَةٍ وَتَفَنُّنٍ حَتَّى أَدْرَكْنِي التَّعَبُ ، فَتَرَكْتُهَا ... وَجَلَسْتُ عَلَى
الْمَسْكَا أَمْسَحُ وَجْهِي وَأَغْمِمْ :

لعلك بعد هذا تقلعين عن غيبك وتشوين إلى رشدك ...
والفيسها ترحف إلى ركن من أركان الفرقة تجمعت فيه
وراحت تنشج.

وقت إلى مكتبي ، ومضيت أعبت بأقلامي صامتاً ، وأنا
أنظر إليها من طرف خفي ... ثم قلت كأن أحدث نفسي :
ستشكرين لي هذا الصنيع ... إنه درس نافع لك في الحياة !
فلم تجبني ، بل جعلت تنشج نشيج طفل ذليل مبتئس ...
ولبتنا وقتاً على هذا الحال : هي في ركنها تولول ، وأنا جالس
إلى مكتبي أعبت بأقلامي ، وأخالسها النظر الفينة بعد الفينة ...
وهمت أخيراً أن أذهب إليها لأرضهاها ، فوجدتها ترفع
رأسها وتهمهم بهذه الكلمات :

لم أكن أستحق منك أن تعاملني بهذه المساواة ...
— بل تستحقين ...

ومضت تمسح وجهها وتلتق ما تشعث من شعرها ،
وهي تقول :

لوعلت أية عاطفة طيبة أكسها لك لما فعلت معي
ما فعلت !

فتضاحكت قائلاً :

أية عاطفة ؟

— لا تزِدْ من ألى هذه السُّخْرِيَّة !
ونهضتُ تقصِدُ مكاني قائلَةً :
أقسمُ لكِ إنى كنتُ معزِمةً زيارتكِ وَفَقَ الموعدِ الذى
عَدَرَبناه ...

— أتعودينَ إلى هذركِ ؟
أقسمُ لكِ إنى صادقةٌ فى قولى هذا... لقد كنتِ حاضرةً إليكِ
لولا وفاةَ أحدِ أقارِبى ...

ودنت منى وهى تتكلمُ حسيدهُ البَصْرَ :
أأكون منكرةً بجميلِكِ إلى هذا الحدِّ ؟
ودنت منى أيضاً وهى تقولُ :
ألم تشعريَ بأنى أميلُ إليكِ ... ؟
فصحتُ :

تميلينَ إلىّ ؟ أنتِ ؟
وانكبتتِ على ركبتيَّ تحتضينهما وهى تقولُ :
أحبُّكِ ! ..

— وإذا كان هذا مبلغَ شعوركِ ، فلماذا كنتِ تعاندينِ
وتكابرينِ ؟

فرفعتُ رأسها إلىّ وعيونها شَرِقةٌ بالدموعِ وقالتُ :
من فرطِ حبى لكِ !

ونَهَضتْ فطوّقتْ عنقِي بذراعِها ، ثم أدنتْ وجهها من
وجهي ، ومهّمتْ قائلةً :

دونك شفاهي ... هي لك ا

وغبنا معاً في عناقِ حارٍ ، وقبلاتٍ مستعرة ...

وأجلستها بجانبِي على المتكأِ ويداها بين يديّ ، على حين كانت

عيناي لا تزويان من النظر إلى شفثتها ... وقالت لي :

لن أفارقك ... لن أفارقك أبدا ا

... كيف ؟

-- ألا ترضى أن أقيم معك ؟

... وأسرتك ؟

... لا يستطيع أحد في العالم أن يحول بيني وبينك ا

وعقدتْ ما بين حاجبيها وقالت في صرامة :

سأقرر مصيري بنفسِي . أنا حرّة في تصرّفي . لا سلطان

لأحد عليّ ا

وسمعتُ في هذه اللحظة دقّاً بالباب فألقيتها تفرّج إلى رقتي

تعلقتُ بها ... تهمس في زبراتٍ مختلجة :

لا تفتح . لا أريد أن أعود إليه ا

وسمعت صوت الطاهي يسألني عن طعام المساء ، فطلبتُ إليه

أن يرجعَ بعد فترة ... ثم التفتُ إليها وقلت :

من تخافين ؟

فتحركت شفتاها دون أن تنطق بحرف ، وعدت أقول :

فيم الغزع ؟ ... من تخافين ؟

فقال والحيرة تجول في مآقها :

أستطيع أن أعول عليك ؟

... كل التعويل ...

... أقادر أنت على أن تدفع عني كل أذى ؟ أقادر أنت على

حمايتي ؟ حمايتي منه ...

... من هو ؟ ... من ؟

... هو ... هو ..

... أبوك ؟

... ليس لي أب !

... إذن من يكون ؟

فأخضت وجهها في صدري ، وطفقت تنسج قائلة :

لقد كذبتك كل ما أخبرتك به كحوض اختلاق ...

اغضري لي ! ...

... أو ضحي كل شيء ... تكلمي ...

فرفعت عينها إلى وقالت :

لا تحقد علي ... إني فتاة بائسة ... لا نصير لي في الدنيا

سيواك... ألم تقل إنك راغبٌ في إصلاحِ أمرى؟

— عوّلى علىّ واكشنى لى عن متاعبكِ وهو ملكِ ا

— إذن لن يستطيعَ أن ينالنى بسوءِ ا

— من هو؟

— هو الذى يأمرُننى فأطيع... هو الذى يلتقننى كلّ كلمة

أفقوهَ بها، ويرسّم لى كلّ طريق أسلكه... هو الذى يفرض

علىّ إتاواتٍ يجبُ أن أؤديها إليه كلّ يوم... هو أصلُ بلائى ا

— من هو؟

— هو شيطان لقينى فى طريق الحياة، فحوّلى من فتاة طيبة

القلب، طاهرة الذيل، أدرسُ فى معاهدِ التعليمِ بنشاطٍ إلى حيث

ترى... أهوى إلى الدركِ الأسفلِ ا

— ولماذا لا تتركينه؟

— لا أدرى ا... لا أدرى لماذا لا أستطيعُ تركه... ولكننى

أؤكدُ لك أن كلّ شيءٍ انتهى الآن... سأستأنف معك عهداً

جديداً... إنى أضع حياتى كلها بين يديك، فأقلنى من عثرتى،

وانتسلىنى بما أنا فيه .

— لا تخشى أحداً مادمتِ معى... كونى على ثقة بأننى

لكِ نعمَ الهادى ونعمَ النصير... .

ووجدتها تريح رأسها ثانية على صدرى وترخى أجبانها،

وقد شاعت في وجهها طمأنينةٌ وهدوء...
وغمرنا الصمت والسكون... وأخذ ضوء النهار يشحُب ..
وطال صمتها وهي مسبلة الأضغان . وكان صدرها يعلو
ويهبط في حركة منتظمة ، فأحطتها بذراعى في رفقٍ وطفقت
أنتطلع إليها مجتلياً سحرها الخلاب ...
يا لله ! ... لم أرها على هذه الفتنة من قبل ...

استيقظت والصبح قد بدأ يتنفس ، ودرت بعيني أنفق
« ذات الشفاء » .. فلم أجدها ، فناديتها فلم يجني أحد .. فانطلقت
أبحث عنها في الدار فلم أعثر لها على أثر... فقصدت إلى حجرة مكنتي
حيران مضطرباً ، فوقع بصري على درج المكتب مفتوحاً
والفيت حلقة المفاتيح معلّقة بقله ، فأخذتني العجب كل
مأخذ ... إن حلقة المفاتيح لا تبرح جيبى !
وهضعت إلى الدرج أبحث فيه ، فلم أجده محفوظة نقودى ..
ووقفت مهوتاً ، وقد انتفضت أوداجى .. وعدت إلى بحى فدقة
وتحمرت منادياً « ذات الشفاء » ... ولكن كل ذلك كان بلا جدوى ..
واندفعت إلى « التليفون » ، أطلب « قسم البغالة » ، وما كاد يجيبني
حتى أعدت الساعة مكانها في عنفٍ وأنا أرددُ :
غلط ! ... غلط ! ...

وجعلت أقطع الحجرة ذهاباً وجيته ، وبغته وقع نظري على
معجم أبوت ، ملقاً على الأرض في إهمال ، متجمعاً بعضه على
بعض كشيخ طحنته السنون . وأبصرت بقصاصة الورق تطل من
بين صحائفه فأنحيت أجتنبها ، وما إن طالعتني صورة الشفاء الغليظة ،
حتى انهلت عايتها دَعَا وكأني قد نذفت بها في عرض الحجرة ...
وانثيت على المعجم فوق في وهمي أنه يرمقني في خبث
وتهمك ، فركلته ركلة شتت من أوراقه ، وبعثت من فصوله ... أ

القبلة التائفة

قاله أبو نصر ، أحد رواة الأدب في عصر بني العباس :
كنت عند محمد بن يسار اليزيدي ، أحد أمراء
الجند في عهد الرشيد ، وكان قد أُرْبِي على السبعين ، وحلّد
إلى حياة العزلة في قصره المنيف على دجلة ، في
ضواحي بغداد ، وكنت أزور هذا الأمير بين حين وحين ،
فتقضى الوقت نعرض معاً عصر الرشيد ، وتذوق أخباره
في تشويق واستمتاع . وكان قد مضى على وفاة الرشيد عشرون
عاماً ونيف .

وقصدت إلى الأمير في أصيل يوم من الأيام ، فوجدته
في الحديقة جالساً وسط الرياحين على وسائد من الديباج .
فإن رأني مقبلاً عليه ، حتى لاحت على وجهه ابتسامة وقال :
كنت أفكر في إرسال من يطلبك الآن يا أبا نصر ...

— خيراً أيها الأمير !

— اجلس ...

بجلس على وسادة ، على مقربة منه . وكان يحيط بنا

نافوراتٍ بحماسةٍ على شكلِ أسودٍ تقذفُ المياهَ من
أفواهها في عظمةٍ خلابةٍ ، وسمته يقول وهو يحدِّق في
وجنه أسد من هذه الأسود :

برغبةٍ في التحدثِ إليك في حادثةٍ وقعت لي أثناء صيبي ،
يكتسبها لغزٌ لم أستطع حتى اليوم الإتهاء إلى حلِّه ...
وتقلبُ الأمير على وسائده ، ثم أخرج من صدره
علبةً صغيرة من الخشب ، زكية الرائحة ، عليها رسومٌ
فارسية جميلة . وناولني إياها ، فأخذتها وأنا أتفحصها معجباً
بديق صنعها .

وسمعت الأمير يقول :

لقد عثرت اليوم على هذه التحفة في خزانة لي قديمة ،
فأثارت في قلبي ذكرى بعيدة . ذكرى محبة بالرغم مما فيها من
غموض .

وفتحتُ العلبة ، فإذا فيها ياقوته و زمردة ،
يتوسطهما قلب من العاج . فرفعت عيني إلى الأمير متسائلاً ...
فقال :

أياقوته ، أم زمردة ؟

فقلت :

لا أفهم شيئاً يا مولاي !

- اِستَمِعْ لِي فَسَأُرَوِي لَكَ قِصَّتَهُمَا .

وكان ضوء النهار قد بدأ ينحسر عن المسكان ، وأخذت الظلمة تتسلل بخطا جريئة ... واسترخى الأمير في جلسته ، وأسبل جفنيه وقتا وهو صامت ، فحسبته قد أغنى . ولكنه لم يلبث أن تكلم في صوت خافت يقول :

كنت ذات مساء جالسا في موضعى هذا ، منذ خمسة وعشرين عاما ، أطلب الوحدة والراحة بعد يوم حاصف مزدحم بالزوار . وكان ذلك على أثر عودتى من الثغور الغربية بعد انتصارى الحاسم على جيوش الروم ، فرأيت الخادم يتقدم منى فى خطأ مترددة .
فقلت له :

ما وراءك يا أبا زهير ؟

فقال ، وقد خَفَضَ بَصَرَهُ :

شخص يطلب المثولَ بين يديك يا مولاي !

فرمته بنظرة نكراهة وقلت :

ألم أخبرك أنى لن أقابل أجدا ؟

- إنها عادة من علية القوم ، تلج في طلب لقائك !

- عادة تلج في طلب لقائى ... ؟

ونكست رأسى طويلا ، ثم نظرت إلى «أبي زهير»

وقلت له :

أدخلتها... ولكن الويلُ لك إن كان في الأمر ما لا يستحق
الذِّكْرَ !

وبعد قليل ، ظبرتُ غادةً . أنيقة الملبس ، تخفى وجهها خلف
نقاب من الحرير ... تقدمت مني ، وانحنى ، ثم قالت في لهجة
فصيحة :

السلامُ عليك أيها الأميرُ !

- وعليك السلام ... اجلسي !

وجلست على وسادة بيضاء عني ، والعطر يفوح منها ،
فيتخاذل عطر البستان إزاهه في خزي . واستطعت أن أرى
ملاحها الفتاة خافت النقاب . فنظرت إلى أبي زهير ، وقلت له :
دعنا وحدنا الآن !

وتركنا أبو زهير ، ومضى وقتٌ والغادةُ لا تتكلم ولا ترفع
نقابها .

فقلت لها في صوت رقيق :

أما آن للبدر أن يسفر !؟

فألقت بالنقاب جانبا ، فظهر وجه يسطع كالقمر في الليلة
الظلماء ، فقلت :

لم لا تقتربين يا حسناتي ؟

- أنا وصيفةُ الأميرةِ دياقوتة ، يامولاي . أرسلتني إليك

في أمر خاص .

فقلت مردداً :

الأميرة «يا قوته» الفارسية ؟

— هي نفسها يامولاي !

وكانت أخبار الأميرة على الرغم من كثرتها اشخصيتها قد ذاعت في «بغداد» ، ولكنها ظلت على الدوام محوطة بالالتغاز والأسرار . وكان الناس يروون في شأن جمالها أوصافاً لا يسمعونها المرء إلا في الأساطير ، ويتحدثون فيما تعيش فيه من الترف البالغ أحاديث لا يقبلها العقل السليم ، حتى إنها لفرط جمالها ، وما يحيط بحياتها من غموض وسحر ، قد أصبحت قبلة النظر ، ومسرح الفكر . بيد أنها بقيت أمتع من عقاب الجوّ على مُسْرِديها ...

فالتفتُ إلى الوصيقة ، وقلت لها مبتسماً :

حقاً لقد أحسنتِ الأميرة اختيار من يمثلها !

تخففت من بصرها في خنفر ... فقلت :

وبماذا أستطيع خدمة الأميرة ؟

فصمت الوصيقة قليلاً ، ثم قالت :

أن تشرّفنّس الليلة بزيارتك ...

فأرسلت بصرى في الفتاة أتفحصها . ثم حولت نظري عنها وقد انطلقت أفكر ، وأنا ألقب الأمر على شتى الوجوه ... ألم

أبذل من جهد ومال - فيما مضى - في سبيل الوصول إلى الأميرة
فرفضت لفأني رفضاً مذبلاً تمطمت معه كبرياتي ؟ ... والآن
ماذا جد في الأمر ، حتى تبعث في طلي من تلقاء نفسها ؟ ...
سأرفض بدوري رفضاً قاطعاً ، وسأطعن كبرياءها طعنة
صائبة ... فازددت اضطجاعاً في جاستي ، وقد أعددت كلمة رفض
رائعة ، فرأيت الوصيقة ترك مقعدها وتقترب مني ، ثم
انحنت في أدب ، وقالت :

والأميرة ترجو منك يا مولاي أن يكون حضورك بلبس
الجيش ...

... ماذا ؟ ... أوامر ألقاها علي أن أخني هامتي لها خاضعاً ؟ ..
وأردت أن أرد عليها ردًا حاسماً . فسمعتها تقول في ابتسام :
لا تنس الدرّوع والمغفر يا مولاي ، ولا السيف ذا المقبض
العاجي المحلى بالياقوت ...

وقبل أن تسمع جوابي ، رأيتها تراجع مبتعدة ، وظلمة
الحديقة تبتلعها

ولبثت ساعة مشدوها ، أهدق في المكان الذي اختفت فيه ،
وأنا لا أنحرك ولا أبدر بكلمة . ثم رأيتني قد وقفت بغتة ، وناديت
« أبازهير ، ، فما إن لاح شبحه من بعيد ، حتى صرخت :

مائة جلدة .. عقاباً لك علي أن أدخلت هذه الدعيّة في حضرتي

— مولاي ا

— لولا حرمة شيخوختك، لاطحت رأسك من فوزى ا
وأخذت أروح وأجىء في الحديقة ساعة ، وأبو زهير واقف
مطأطىء الرأس ذليل ا
وأخيراً دنوتُ منه ، وصرختُ في وجهه قائلاً :
هَيْسَى لى لبوس الجيش على عجل ... ولا تنس السيفَ ذا
المقبض العاجى المعلق بالياقوت ا
وخرج « أبو زهير ، مهرولا ، واقتفيتُ أثره إلى الدار ،
وأنا أتممُ :
سترى ... سترى ...

* * *

سار بنى القاربُ ، يَشُقُّ مَسْنِ دِجْلَةَ ، والجوُّ رائق
رَخِيءُ الذُّسَمَاتِ . وطالَ بنا السيرُ ، إذْ كانَ قصرَ الأميرةِ في
ضاحيةٍ بعيدةٍ . ومضيتُ أفكَّرُ في هذه الدعوة الجريئة ، وهل
أصبتُ في تليتها أم أخطأتُ ؟ ...
ووقع بصرى على المقبض العاجى لسيفى ، وقد التمت
بواقيته تحت أشعة القنديل المعلق أمامى ، وشعرت
بيدى تتلمس موضع المغنفر من رأسى ، والدرع من
صدرى ... ثم ابتسمتُ ابتسامة عريضة ... أئمة موقعة

سأخوض غمارها بعد حين ١٩
وبعد وقت لاح القصر من بعيد ، يتلألاً نوراً ، ويأخذ
المسِينَ بهاءً ا

واقتربنا منه ، ووقفنا القاربَ ... وما إن قَفَزْتُ
منه إلى الأرض ، حتى برزت لي فتاةٌ يتبَّهها شخصان ، وإذا بها
تتقدمُ نحوى ، وتقولُ :

أيسمح مولاي الأميرُ أن أرافقه ، لأدله على الطريق؟
وعرفت أنها الوصيْفَةُ ، فوقفت برهةً أطيل النظر فيها
وفي تابعيَّيها ، وكانا خصيَّيْنِ في أبهى حلة وأغلاها . ثم قلت
لها مبتسماً :

لم أكنُ أسمح لسواك يا حسناني أن يأخذَ مكانَ القيادة مِني ...
أتظنين أن الطريقَ يستعصى على ١٩
فَضَحِكْتِ ضحكة صافية ، وقالت :

كلُّ أمرىي يُحسن الضربَ في مَيدانِه يا مولاي ...
وهذا الميدانُ ...

- أليسَ ميداني ١٩

وطرقتَ سمعى في هذه اللحظة أصواتُ غناء رقيقة مصحوبة
بعزفٍ عودٍ ونأى ، صادرةٌ من ناحية القصر .. وهبتُ على
أنفاسُ الزَّهْر الفواح ... وكانت الوصيْفَةُ تسير أمامى ، ويدها

مصباح رائق النور . وسرت خلفها ، وأخذنا نصعدُ مرتقى سهلا
لينا ، مكسواً بمشائش نضرة . فكأننى أخطو على بساطٍ
وثير ، ورحت أعابث أفكارى رهةً وتعابثى ، حتى وصلنا إلى
القصر . فاخترقنا بستانا عظيما ، ومررنا بنافوراتٍ وجداولٍ
وعبرنا قناطرٍ تهطل عليها الأغصان تهطلُ الشعور على مناكب
الحِسان ... وسرنا بين الخائل الرائعة تتطير فيها أنفاس الحبِّ
دافئة رِيانة . كلُّ هذا وأصوات الغناء الرقيقة بعودها وثايبها
تصاحبنا في رفق وسحر . وأحسست شيئا من الفتور اللذيذ يتسلل
لينا إلى قلبى ... ورأيتنى أهمهم :

أحقا أن هذا الميدان ليس ميدانى ؟

وانتهى البستان ، ودخلنا القصر ، فإذا بنا نجوز أبهاءً فسيحةً
رائحة المنظر بألوان حيطانها وزخارفها وثيرانها وأرائكها
وبسطها ... شيء لم أره حتى فى قصور الخلافة ! ... وكنا كلما سرنا
ازدادَ الغناء وضوحاً ، وازداد قلبى رقة ورهافة ...

وأدى بنا المطاف إلى حجرة تغمرها الأنوار الفياضة ،
رأيتها تزخر بالقيان الباهرات الحسن ، تتوسطهن سيدة متربعة
على شبه عرش ... ما إن وقع بصرى عليها حتى أحسست كأن أنفاسى
قد احتبست ، ووجدت عيني قد تعلقنا بها فى شره غريب ...
وسمعنا تقول فى رقة وعدوبة :

أهلاً بالأمير محمد بن يسار ، قاهر الروم وسيد الثغور
الغربية . وسيف الله المسلط على رقاب الكفار !
فهممت قائلاً ، وقد انحنيت أمامها :
السلام على الأميرة يا قوتة العظيمة بجمالها وبعريق منبتها !
— وعليك السلام أيها الأمير... تقدم... إن مكانك لينتظرك !
وتقدمتُ إلى وسادة بجوارها ، جلستُ عليها وأنا أقولُ :
أترينني قد تأخرت في الحضور ؟
— كلا ...

— إن الأميرة قد اختارت لقصرها مكاناً بعيداً عن
بغداد ...

— إنى أكره المدن ، وأحب العزلة في مكان هادئ . طليق
الهواء !

— ألا تقدمين بغداد ؟
— أقدمها نادراً ، في الفينة بعد الفينة ...
ثم صمتت قليلاً ، وهي ترسلُ بصرها في ... ثم ابتسمتُ
قائلة :

لقد كنت فيها صباح اليوم ...
— صباح اليوم !
— وشاهدتُ موكب الفاتح العظيم ، وهو يجتاز بغداد على

فرسه الغراء ، محوطاً بفوارسه الأشداء ، تظله الرايات ،
وتلتمع حوله الرماح ...

وألتفت يبصرها على سيفي ، فقالت صائحة :

يا له من درة نفيسة ... ذلك الجبار ذو المقبض العاجي
المرصع بالياقوت ...

ومدّت يدها إليه فنزعته مني في رفق ، وأخذت تعلقه بين
يديها مشغوفة ، ثم مضت تستله من عنقه ، وهي تحدق فيه بعين
لا معة ، وتقول :

كم رأساً أطاح ؟

— عدداً لا يحصى أيتها الأميرة !

— ولكنه أملس كخند العذراء ... يا لله ... إن الجمال ليختلط

فيه مع القسوة ، فلا تدري أرسول الموت هو حقاً أم رسول
الغرام ! ...

وأدنته من فها ، وقبّلت حده . وأنا أنظر إليها كالمسحور ،

ثم هبت واقفة ، وقالت :

هني إياه أيتها الأمير !

— سيدتي ...

— أنرفض ؟

— فابتسمت قائلاً :

إن القائد بلا سيف ، كالغاية بلا لفظ ا
— أو تحسب نفسك في ميدان حرب ٢١ ..
فأجبت وأنا محتفظ بإبتسامتى :

إن الميادين واحدة ، وإن اختلفت الأسماء ... ا
فلا طقت خدسى ، وقالت :

أريد أن تعلن علينا الحرب . ونحن كما ترى قومٌ عُرل ؟
— عفواً أيها الأميرة ا

فضحكت ضحكة ثابتة . وقالت :

سأنا له منك ، رضيت أم لم ترُض ا

وذهبت إلى أحد أركان الغرفة ، فعلقتنه ، على جداره بعناية .
ثم عادت إلى ، ووقفت قبالتى . وقالت وثغرها مفتراً وعيناها
مُسبلتان :

سنعوضك خيراً منه أيها الأمير ا

وقبل أن تقسح لى المجال للكلام ، صاحت :

علينا بالطعام ا

وأقبل سرب من الوصيفات الحسان ، يرُفلن فى أثوابهن
الفخمة ، بعضهن يَحْمِلنَ الأباريق والطسوت يفوحُ منها أريجُ
الورْد ، والبعض يهَيئن الموائد ، ويأتين بصحاف الطعام
الشهى المختلف الألوان ...

وخلعت مغفري ودرعى ، ثم غسلت بماء الورد يدي ،
وأقبلت على المائدة ، وبدأت آكل ، وقد عاد القيانُ إلى غناهنَّ
الساحر . ثم جاءوا لنا بقتينات الخمر الفاخر ، فانطلقت أشرب منها
وعيناي لاتفارقان وجه الأميرة .

وكانت الأميرة في الحين بعد الحين تستوضحني مغامراتي
الحرية ، فأروها لها في دقة وتنميق يثيران اهتمامها وشغفها ،
فتقبل عليّ تطلب المزيد .

..... وانتهى الطعام ، وأنا في شبه حلم بما أرى وأسمع .

وهمست الأميرة في أذني :

أترارك راضياً عن هذه الزيارة ؟

فترنّح رأسي قليلا ، وهمّهمت :

إنى لأحسب نفسي قد استشهدت في حرب الرُوم . وما
هذا المكان الذي أنا فيه الآن إلا الجنة التي وعد بها الشهداء
المقنون ! ...

فابتست الأميرة ابتسامة رحبية .

وبدأت الوصيفات يرفعن الموائد ، ثم أخذت القيان يتسللن
خارجات . ولم تقص إلا برهسة وجيزة ، حتى رأيتني وإياها
منفردتين في القاعة ، وقد اضطجعتا على الوسائد اللينة . . . وسمعتها
تقول في صوت الحالم :

لم تبق إلا موقعة الخندق... لم تحدثني عنها !
— موقعة الخندق ؟ ... وهل جاءتك أخبارها ؟
— حمل الرثاوة نُسفاً منها إلينا ...
— رَجِمَ بالغيبِ ما سمعتِ أيتها الأميرة !
— كيف ؟

— إن موقعة الخندق لم يشهداها سوى وعشرين فارساً من
الأعداء ، حصدهم سبني حصداً ، فلم ينجُ منهم أحد... فكيف
يستطيع غيري أن يعلم تفاصيلها ؟
وأحسست جسمي يتقيد كشعلة ملتهبة من جراء ما شربته
من الخمر . فقميت ، وجعلت أقصُّ على الأميرة في حماسٍ مثير
موقعة الخندق ، وأمثلُ حوادثها تمثيلاً دقيقاً ، والأميرة مصوبة
بصرها إلى ، لا تطرف لها عين ، وقد دعمت خدَّها بكفها ،
وراحت تسمع في تشوُّف ...

وما كدت أنتهى من سردِ القصة ، حتى ألقيت بنفسي على
وسادة الأميرة بالقرب من قدميها ... وشعرت يديها تأخذان
برأسي ، وتوسده حجراً ، وانطلقت تمسح وجهي ... ثم تلاقت
نظراتنا طويلاً ، وسمعتها تقول :
ما أروع منظرَ البطل ساعة الهزيمة !
فرفعت رأسي قليلاً ، وقلت :

أية هزيمة ؟

فقلت في صوت لين المكسر :

إن من الهزائم ما يعدُّه البعض انتصاراً أيها الأمير !
ورأيتني ألف ذراعى حولها ، وأجذبها نحوى ، وقد أدنيت
من وجهها وجهى . ووجدت شفنى ترعشان ، وهما تتأهبان
لاختصاب القبلة العظيمة ...

ومكث الوجهان برهة متقابلين ، لا يفصلُ كلاهما عن
الآخر إلا أنفاسٌ حارَّةٌ تتراسل بها الشفاهُ !
وفي لحظة انفتحت الأميرةُ عني ، كالسمكةِ تملصُ من يدِ
الصيِّاد ...

ورأيتها تمهم ، وقد برقت عينها بلمعةٍ قاسيةٍ ، فيها
تحدُّ وفيها كبرياءٌ :
لن تنالها !

ووقفتُ مأخوذاً أحدقُ فيها ، ومرُّ برأسى خاطرٍ محاولتى
الأولى ، وما أصابنى فيها من إخفاقٍ مذلٍّ . ففقدتُ ساعدى ،
على صدرى ، ورمقتُ الأميرةُ بنظرةٍ تتجلى فيها السيادةُ ، وقلتُ :
سأنالُ القبلةَ ، رضيت ، أم لم ترضى !
ولحظتُ أنها تمهمُّ باستدعاءِ أعوانها ، فقفزتُ إلى سيفى ،
فانزعته من الحائط ، ثم تقدمتُ منها . وأنا مستوثق من نفسى ، وقلتُ :

جبرني، واستدعى من تشاين... وانظري كيف يكون
مصيرهم ا

فظلت صامته برهة، تختبرني بنظرها الثاقب. ثم لاحت
على وجهها ابتسامة عابثة. وقالت :

كلاً أيها الأمير... كن مطمئناً... لا أرغب في دفعك إلى
معركة خندق أخرى، قد لا يواتيك النجاح فيها ا
فقهقت طويلاً، وأنا أتأمل حدّ سيني اللأمع...
وسمعتها تقول :

وإذا طلبت منك مخادعة القصر ؟

— قبل أن أنال القبله ؟... هيهات ا

— من تظني أيها الأمير ؟... أعظيئة من عاظيك ا ؟

— وأنت أيتها الأميرة... من تظنيني ؟ أطفيلي مهرج ،
يقنع بأكلة فاخرة ثمناً لما يرويه لك من القصص ، وما ينشده
من الشعر ا ؟

وصمتنا زمناً ، وعيوننا متلاقية لا تطرف. ثم رأيت الأميرة
تبسم ، وقالت في تمهل ، وقد حولت نظرها جانباً :

يالنا من أحققين ا

— هذا ما كنتُ على وشك أن أقوله ا

وانطلقنا دفعة واحدة نضحك ، وقد ارتفع صوتنا في شبه

صياح . فجاءت وصيفة مهرولة، وقالت:

أطلبُ الأميرةُ شيئاً؟

— أجل يا بستانُ .. أطفئِ الشموعَ ، وأسدي الأستارَ !

فقلتُ على الفور :

ما معنى هذا ؟

فأقبلتُ علىَّ في دلال ، وقالتُ وعيناها تستعطفاني :

الأيديع لي القائدُ المنتصرُ أن أطلبَ منه مطلباً واحداً ؟

— أوِّضِي يا سيدتي !

فدَنتُ مني ، وهمستُ قائلة :

لن تنالَ القبةَ إلاَّ في الظلامِ !

— ولكن

ولمحتُ عينيهِ—! قد انقَدَتَا فجأةً بجمرة نار ، وقالتُ في

صوتٍ متهدج :

هذا تطليبي ... فإن رفضته ، فالحربُ بيننا !

وسكتُ حيناً ، ثم ما لبثتُ أن تضحكتُ ، وأنا أداعبُ

سحائلَ سبني ، وقلت :

مشيبتك ناقدةٌ أيها الأميرة !

وإذا بي أمسكُ يدها على الفور . وقلت وقد غارت ضحكى

وتشتنت :

أما إن حدثتكَ نفسك بسوء ...

— لست بلهاء أيها الأمير ...

وكانت « بستان » الوصيفة قد أوشكت أن تمّ عملها في إطفاء
الشموع وإسدال الشُّور... فلم تبقَ إلا شِمة واحدة مضاءة،
فركبتها وخرّجت .

وانتخدت الحجرَ أمامَ عيني منظرَ أمرٍ حشا، فكانتني انتقلت
في لحظة بقوة غير منظورة إلى مغارة من مغاور السحرة . وكرهتُ
منظرَ الظلال المتراقصة على ضوء الشمعة الفاتر، ولكنني لم
أعبا به، وقلت :

ألا تلتهمين من هذه المهرّلة ...؟

فقلتُ في طرّآوة ساحرة :

لا تكن عجولاً أيها الأمير !

وأطفأت الشمعة، فلم أعدُ أرى شيئاً، ولكنني كنت أحس

وجودَ الأميرة من صوت تنفّسها، وحركة يديها ...

وأخيراً شاهدتُ أمراً عجيباً ... ثلاثة نجوم صغيرة كأنها

الوشم تنلّأ على صديريها العاري، وسمعتها تقول وهي ممسكة

بيدي :

كلُّ من كان من نسل الأكامرة يحملُ على صدره هذه النجوم

الثلاثة

وكنت لا أرى من الأميرة إلا هذه النجوم اللامعة تتلألا ،
فتير حولها هالة من الصدر في حجم كف الطفل . أما غيرُ
ذلك فظلامٌ في ظلام !

وأمسكت بئكيها ، ولبثت أهدق في تلك النجوم الثلاثة
منفحصاً إياها في دقة . ثم قلت :

يا له من وشم جميل ، يزيدُه حسناً هذا الصدرُ البضُّ الجميل !
وأدبتُ وجهي منه ، فأبعدتني في لطف ، وقد غطت صدرها
وهي تقول :

أظن أنه وشمٌ كسائر الوُشوم من صنع البشر !
— إذا ما هو ؟

— إن الطفلَ ليولدُ وهو يحملُ على صدره إشارةَ النبل هذه
أيها الأمير !

— عجيبٌ ... وهل تعتمُ فارسٌ كثيراً ممن يحملونَ هـنـه
الشَّارة ؟

— لا أعرفُ إلا شخصين يحملانِ هذا الوَشم ...

— أنتِ ومن !؟

— أختي !

— ألكِ أخت ؟

— اسمها زُمرُدة ...

— لم نسمع بها ...

فصمتت قليلا ، ثم قالت :

إنها أختٌ غير شرعية ، أيها الأمير !

— أختٌ غير شرعية ... وأين هي ؟

— في القصر !

— ولم لم تظهر ؟

— هذه رغبتها ...

وجدتُ بنتي من يدي ، وأجلستني على الوسادة ، وقالت

في نعومة :

ألك في كأس من الخمر ١٩ ...

* * *

قال الراوى :

وصممت الأمير محمد بن يسار اليزيدى ، وازداد اضطجاعاً

بين وسائده ، والأسود النحاسية ما برحت تُقذفُ بمياها ،

فتوهج تحت ضوء القمر ؛ كأنها السيوفُ المشهورة

وطال صمته ، فقلت متشوّقاً :

ثم ماذا أيها الأمير ... ؟

فلاحت على وجهه ابتسامة هادئة ، ثم قال :

أليست هذه نهايةً صالحةً ، تنقضى عندها الحادثة

يا أبانصر...؟

- والقبلةُ أيها الأميرُ؟

فتمطى الأميرُ، وأرخى جفنيه، وهو يقول في لهجة الخالم:
يا لها من ليلةٍ رائعة، على الرغم من حُلوكتها، واكتنافها
بالأسرار، لم أقص في حياتي أطيّبَ ولا أبهجَ منها...
ولكن...

- ولكن ماذا يا مولاي؟

- أيا قوتهُ أم زُمرُدةُ؟

- بربك زذني إيضاحاً أيها الأميرُ!

- استمع لي يا أبانصر، ثم أسعفني برأيك في اكتناهِ هذا

الغز العجيب...

وعاد الأميرُ محمدُ بنُ يسارِ اليزيديُّ، إلى جلسته الأولى،
ووصلَ ما انقطعَ من حندينِه الأوَّل، وهو يداعبُ
لِحيتَه... قال:

وأخيراً أخذتني الأميرةُ من يدي في الظلام، وصدُرُها
العارى البضُّ تلتلُّ لأُفِيه الأنجم الثلاثة، ودنت من الشَّسمةِ
فأشعلتها. وما كدتُ أتبين وجهها على الضوء الناصِل المرتعش،
حتى وثبتُ كأنما لدغني أفعى، وصرختُ:

من أنتِ؟... من تكونين؟

فابتسمت في خبث زادها بشاعة إلى بشاعتها ، وقالت :

خادمتك زمرُدة أ

— أخت الأميرة ؟

— نعم أيها الأمير !

— وأي شيطان جاء بك الساعة ؟ ...

— أنا معك من أول الليل أخضت مكان الأميرة

بقربك ...

فقلت لها وأنا ارتعش :

أترُعين أيها الشقيبة أنك كنت جليستى في الظلام
طول الوقت ؟ ... خسنت ... كذبت وبهتان ما تدعين ا
وهجمت عليها ، لأمسك بها ، فظهرت الأميرة « يا قوته » ،

على الأثر ، وسمعتها تقول :

أهكذا تعامل أخى أيها الأمير ؟

ولجات « زمرُدة » إلى أختها ، ووقفت بجوارها ، عتية

بها ... يا لله ... كان قوامُها واحداً ، وصوتها متماثلاً ،

وإشاراتها متشابهة .. وهذه الأنجم التي تزين صدرهما ...

كأنها توأمان ، إلا في السحنة ، فالأميرة تترقق

جمالاً وعذوبة ، على حين تبدو الأخرى في دمامة

وبشاعة ا

وجعلتُ أنقلُ عينيَّ بينَ «ياقوتة» و «زُمُرُودة» ، وقتاً
ثم صرّخت :

كلاّ ، كلاّ ... كذبٌ وبُهتانٌ !
فابتسمتُ الأميرةُ ابتسامةً وضحاً ، وقالت :

هو الواقعُ أيها الأمير !
وتلستُ سيبقى فلم أجده ، وفطنتُ الأميرةُ إلى ما يجولُ
في خاطري ، فقالت وهي ما زالت محنطةً بابتسامتها :

لقد رضيتُ أن تهبني إياه !
وكانت الشموعُ كلها قد أشعلتُ ، والاسْتارُ
بأكتلها قد رفعتُ ، ووجدتُ في كَنحِ البَصْرِ عشرينَ
عَبْداً من أشدِّاءِ العبيدِ مُدَجَّجينَ بالسِّلاحِ ، قد أخذوا
يُطوِّقُوني ...

وقالت الأميرة :

لن تتكرّرَ موقعةُ الخنْدَقِ في قصرِي أيها الأمير !
ثم أشارت إلى العبيدِ ، وقالت :

إنهم حُرّاسك حتى تصلَ إلى السفينةِ في أمانٍ ... طابَ
ليأُكَّ أيها الأمير !

ولبتُ حيناً أرقبُها ، وهي تسيرُ ، حتى اختفتُ عن
ناظري ، وأنا في ذُهلٍ كمن فقدَ عَقْلَهُ ... ورأيْتُني

أسيرُ ، والعبيدُ أماى وخَلْفى ، حتى وَصَلْتُ إلى السفينة ...
... وما إن عُدْتُ إلى دارى ، حتى قَابَلْتَنى نخامى
« أبو زُهَيْر ، وقَدَمَ لى هذه العُلبَةَ التى تراها بين يَدَيْكَ ،
فإذا هى كما هى الآن... رأيتُ فيها يا قوتةَ وَزُمُرُدةَ يتوسَّطُهما
قلْبُ من العاج . فالتفتُ إلى الخادِمِ متسائلاً ، فقال :
إنها هدِيَّةٌ مُقدَّمةٌ للأمير ...
- تَمَنَّ ؟ -

فاختلجَ صوتُ الرجلِ ، وقال :
أنتِ بها الغادةُ التى حَضَرَتْ للقائه الأميرِ قبلَ العشاءِ... !
فاكادَ يُتَمُّ جملتهُ ، حتى أُلقيتُ نفسى قابضاً على رَقَبَتِهِ ،
أحاولُ أن أخشِقَهُ !

ومسحَ الأميرُ محمدُ بنُ يسارِ اليزيدى ، وجهه بمنديلِهِ
المعطرِ ، وهمهم قائلاً :
حتى اليومِ لم أهدِدِ إلى حلِّ هذا اللُّغزِ يا أبا نصر ... معَ من
قضيتُ هزيعَ ليلتى ؟
فابتسمتُ وأجبتهُ قائلاً :
علامَ هذه الحيرةُ يا مولاي ؟
- كيف يا أبا نصر ... !

— أليست العبرةُ بالمتشعةِ أيها الأمير؟ وقد قلتَ إنها
كانت أروعَ ليلةٍ قضيتها في حياتك ... ا
— هذا حقٌ ، ولكن أيسرُ الحُسن والبشاعةُ في
الخيال إلى هذا الحدِّ يا أبا نصر؟
فابتسمتُ وابتسم الأميرُ ...
ثم صاحَ قائلاً :
الطعامُ يا غلامُ ...

ملاريا الحب

حَمَدتُ اللهُ على أنى أنيئتُ عملي مبكراً في عيادتي ، فقد
كانت الساعة السادسة مساء حين ودعت آخر من قدموا عليّ من
المرضى . وقلت له «حسن» ، المرض ، وقد خلعت معطفي الأبيض
وتركتُه له :

حسبنا من جئنا اليوم ... انتهت عيادة الليلة ... أريد أن
أخلو بنفسى حيناً حتى أستمد لحفلة نادى الأطباء .
وقصدتُ إلى الصُنْبُور ، وجعلتُ أغسل يدي ، وسمعت
« حسناً » يقول :

موعد الحفلة التاسعة يا سيدي .

— عليّ مراجعة المحاضرة التي أعدتها لألقيها ضيماً
محاضرات الليلة ... وأحِبُّ أن أمضى بسيّارتي متنزّهاً بعض
الوقت ... إنها حلي بابِ العمارةِ في الموضع الذي تركتها فيه ...
أليس كذلك ؟

— لقد أوصيتُ بها حارس السيارات .

— خيراً فعلت .

وكنت قد فرغت من غسل يديّ ، فضيت إلى حجرة عملي ،
وجلست إلى مكنتي ، وبسطت أمامي أوراق المحاضرة ، وشرعت
أطالع وأراجع ...

وما كادت الساعة تقترب من الساعة ، حتى كنت خارجاً من
باب العيادة وقد حملت محفظتي الصغيرة محتوية المحاضرة .
وكنتُ جِدُّ مسرور من نفسي ، إذ استطعتُ أن أجمل في
هذه المحاضرة زُبدةً وافيةً لأحدث الآراء في مكافحة الملاريا ،
فقد كانت إحفلةً الليلة خاصةً بها ...

مررتُ من باب العمارة ، واتجهت إلى السيارة فلمحتها
قابعة في مكانها الذي تركتها فيه ، وكانت من السيارات الصغيرة
ذات المقعدَيْن ...

صعدتُ فيها على عجل ، وسرعان ما أدرتُ مفتاحها ،
فانطلقتُ تطوي الطريق ... وكانت حفلةُ الليلة تستغرقُ
تفكيرى كله : ماذا هو مقدرُ محاضرتي ؟ كيف يكونُ
وقعها على الأسماع ؟ ... وكنْتُ قد أبقيتُ معطفتي الأسودَ
على المقعد الآخر من السيارة ، فلبحته عيني في مكانه .
واجتزتُ شارعَ « إبراهيم باشا » ، وما إن أشرفتُ على شارعِ
« الملكة نازلي » ، حتى أيقظتني من أحلامي حركةٌ صادرةٌ من

ناحية المعطف . فالتفتُ الفاتاةُ عَجَلِيْ فإِذَا المِعْطَافُ على حَالِهِ
ولكنني ما لبثتُ أن سمعتُ حركةً أُخْرَى أَشَدَّ وقْعًا ، فوجدتني
أخفف من سرعة السيَّارة وأحدقُ بِجِوَارِي مستطعما فإذا
بالمِعْطَافِ يتحركُ ، فمَزَعْتُ وهاجَمَتْنِي الظُّنُونُ ، فوقفتُ
السيَّارةَ مهتاجَ النفسِ ، وأضأتُ المصباحَ على الأتْر ، وظهرتُ
في الحالِ يدانِ من المعطفِ يساعِدَينِ بيضاوينِ . فتَحَفَزْتُ
في حذرٍ وقد توجَّسْتُ شَرًّا ، ولم أكُ أَفْتَحُ فِيسِي متسائلا ،
والدهولُ يملِكُنِي ، حتى طالعتني وجهُ حَسَناءَ . وإذْ بي
أسمعُهَا تقولُ :

إلى أين تريد أن تذهبِ بي يا سيدي ؟

فبادرُهَا بقولي ، وعينايَ محمقتان :

من أنتِ ؟ وماذا جاء بكِ إلى السيَّارة ؟

ووجدتِ الفاتاةَ تستوي في جِلسَتِهَا ، وتُنحِّي عنها

جانبا من المِعْطَافِ الذي كان يُخْفِيهَا ، وقالت :

معذرةً إذ اتخذتُ مِعْطَافَكَ لي غِطاءً بِمِضَرِّ الوقتِ ...

أردتُ أن أتقَّ به برادرَ البردِ !

وتبادرَ إلى ذهني أنها حيلةٌ تبغِي بها إحدى الغواني معايشي ،

فقلتُ في شيء من الحشونة :

ما شأنك ؟ تكلمِي ... وقِي آمِن من أضيَّعَه في مثل

هذه المهازل ا

فرمتنى بنظرة يتجلى فيها أسفٌ وعتابٌ، وراحتٌ تصلحُ
من هندامها، وتصفّف شعراً واستبانلى أنّ وسامتها يكسوها
ظل من الثُحول والامتقاع. وأنها لم تعن بزيتها ولكنها مع ذلك
ذاتٌ فتنة ظاهرة. وقد استرعى انبهاى على الفور لونُ شعرها،
إذ كان متميزاً بمُسرّته القانية، مسترسلاً على كتفها متموجاً
يهرُ النظر... وسمعتها تههم :

إنه لا تتفأقٌ غريبٌ ذلك الذى جعلنى أدخلُ سيارتك .
ثق أنى لم أتعمدُ ذلك . كانت أولَ سيارة واجهتنى فدخلتها . لم يكن
من ذلك بدءٌ ... وأنت الآن بين أمرين : إما أن تسمع لى
بالنزول ، وإما أن تبلغنى دارى . ولك بملءِ حرّيتك أن تختارَ
أحدَ الأمرين ..

وكانت تتكلمُ فى أدب ظاهر واحتشام ، بلهجة تنطوى على
أنفة واعتداد بالنفس .. وأزاحت المعطف كله عنها ، فإذا هى
فى لبوس المنزل : رداءٌ حريرى سابع سماوى اللون ، رشيقٌ
على الرّغم من سداجته . ولاحظتُ أنها عاطلٌ لا تحلّى بشيء .
وقد نظنتُ إلى دهشتى لما هى عليه من زى ، فقالت وعلى
فها ابتسامة مهملة :

حتى الحذاء لم ألبسه كما ترى ... انظر ... خرجتُ

بخف المنزل ا

وحرّكت قدميها لتريني الخف. ثم واجتني بقولها وهي
تعالج فتح باب السيارة :

سأترُكك يا سيدي... شكراً لك على أبة حال ا
وكانت عينها سوداوين عميقتي التأثير ، تزخران بعواطف
غامضة على الرغم مما يلوح عليهما من إعياء وجهد . واستهواني
صوتها الموسيقي ذو الرعشة المحببة والغنّة الأخاذة ، ذلك
الصوت الهادي الطبيعي الذي ينساب إلى أعماق النفس فيشير فيها
شئى الأحاسيس .

وجعلت تبحث عبثاً عن مقبض الباب ، فقلت لها :

ليس للسيارة إلاّ مدخل واحد ، هو الذى يلينى ...

— إذا أرجو أن تفسح لى .

ونظرت إليها ملياً أناملها ، ورأسى تطوف به أفكار
متضاربة . ثم وجدتني أطفىء المصباح ، وأدير مفتاح السيارة
على مهل ، فخطت بنا خطواتها الهيئّة ، وسمعت الفتاة تقول :

لماذا لم تدعنى أبرح السيارة ؟

— لقد اخترت الأمر الآخر ... سأبلغك دارك ...

أين تسكنين ؟

— مصر الجديدة .

- هي وجسيتي أنا أيضاً ...

- كيف؟

- إنى أطلبُ الزهة واستنشاقَ الهواء الطلق .

- ولكن يا سيدي ...

- لا أستطيعُ أن أدعَ سيدة في عَرَضِ الطريق وهي في

لبوس المنزل .

- لا بد أن شتى المواجهات تنازَعك في شأنى ... امرأة في

هذه الساعة . في سيارتك على غير معرفة ، في لبوس المنزل ...

- لا أخفى عنك دهشتى ا... ولكننى قليل الفضول ...

تستطيعين أن تصونى سرّك عنى ا

- أشكر لك ... كل ما أريدُ أن أخبرك به هو أن تتق

بمسن نيتى .

- لم يسؤُ بك ظنى .

- ولم هذه الثقة العاجلة المرتجلة؟

فابتسمتُ وأنا أحرّكُ في يدي عجلة القيادة ، وقلت :

الحق أنى لا أدرى لماذا ا

- ألا تخشى أن تكونَ مخطئاً؟

- أرجو ألا أكونه ... ا

ومضت السيارةُ تحترقُ شارعَ الملكة ناولى ، في سَيْرٍ

تؤيد ... كان الهواء رُخاءً يحملُ في أطوائه تباشير الفَتَاءِ
بنشاطه واتعاشيه . وكان الليلُ ساجياً والطريقُ يكادُ يكونُ
خالياً إلا من بعض سيارتِ الجيشِ الضخمةِ تمرُ بنا في
جلبةٍ وضجّةٍ فتزلكُ لها سيارتِ الصغيرةُ ، ثم لا تلبثُ
السكينةُ أن تُخيمَ على جانبي الطريق ... وتولانا الصمتُ
وقتما ، ورُحْتُ أفكّرُ في أمرِ هذه الفتاةِ التي رماني بها القدرُ
في تلك الساعة :

ما شأنها ؟ أمنَ الغانياتِ هي ؟ أمنَ الأسرِ الكريمةِ ؟
أمنَ تلك الغنياتِ اللواتي تُسمينَ «أنصافِ العذارى» ، هل
قصدتُ سيارتي قصداً ؟ ... وسمعتها تقطعُ عليّ تفكيري كأنها
تحدثُ نفسها :

لم تحرزِ نصراً في حياتكَ تعتدُ به ياسيدي ؟
فقلتُ :

لم تخلُ حياتي من ساعاتِ نصر ...
— أقصدُ نصراً حاسماً ، كأنك خُضتِ معركةً داميةً كان
لها أثرٌ فاصلٌ في حياتكَ ، معركةً خرجتَ منها وأنت تشعُرُ
بأنك دفنتَ عهداً مُدبراً ، واستقبلتِ عهداً جديداً ...
— لا أدري على وجه التحقيق .
— أما أنا فقد نلتُ هذا النصرَ ، نلته الليلةُ ، ياله من نصرٍ عظيمٍ !

كانت تقول ذلك بلهجة ملؤها الزهو والاعتزاز . وبعد
اللمحة واصلت حديثها قائلةً وهي تحدق أمامها تحديقاً ثابتاً :
إن ثمة لذة لا تفوقها لذة أخرى ، هي تلك الوقفة التي
يقفها المحاربُ وقد سقط خصمه بين يديه صريعاً . ذلك الخصم
الذي طالما ناوأه وأعباه وأذله .. إنها لنشوة عجيبة ، وإنه لشعوره
عظيمٌ حقاً .. كنت أنكر على المقاتلين قسوتهم وأنعى على الحرب
وبلاتها ، ولكنني حينما خضتُ معركةً ، ونلتُ فيها نصري ؛ —
عذرت كل مقاتل سفاكاً !

— يدعشني أن أسمع ذلك الرأي من مثلك ... المرأة ينبوع
الشعورِ للرَّهف ، ومستودع الرَّحمة والحنان !
— الطبيعة الإنسانية لا تختلف بين الرجل والمرأة ...
— قد تكونُ الطبيعة واحدة بين الجنسين ، ولكنني أراكِ
تَعْنُفِينَ في التعبير عن هذا الشعور ...
— لو كنتِ يا سيدي بمن يخوضون المارك الدامية ،
ويمارسون المقاتلة والصراع ؛ — لما رأيت فيما أقول شيئاً من
المغالاة ...
— إني أخوض معارك الدماء منذُ أمدٍ ... ولكنني في
صورة خاصة !
— لست بجندي على ما يلوح لي ٢١ ...

— لا صلة لي بالجندية .

— هل لي أن أسألك إلى أئمة الهيئات الاجتماعية

تَنَسَمِي ؟

— إلى الهيئة التي يلقبها الناس بجزاري بنى آدم الذين يحميهم

القانون ا

— أنت إذن جرّاح ..

— أصبت ا

وانطلقت منها ضحكة رقيقة ، فقلت لها :

أقدم لك نفسى : دكتور شهيدى ، عيادتي في العيادة التي على

بابها أضافتك سيارتي المتواضعة ...

— تشرفتُ يا سيدي الدكتور .

وكنا قد شارفنا « منشية البكري ، وازداد الطريق إفقاراً ،

وتقلقل فيه الصمت والسكون . وتتابعت نسبات الليل تهب علينا

باردة منعشة . ورأيت جارتى تتحسس معطني وتدس يدها في طياته

فقلت من فؤري :

الأتيلين هذا المعطف المسكين شرف تدُّ تُركِّ به مرة

أخرى ؟

— أشكرُ لك هذه العاطفة يا دكتور ا ...

وبادرتُ ببسطِ المعطف عليها ، وإذا بها تقولُ :

أستَ الدكتور عبد الحميد شهدي ، صاحب المباحث الطيبة
التي تطالع بها الصحفَ بين حين وحين ؟
- قد أكونه !

- قرأت لك في الأهرام منذُ أيام بحسبك في الملايا ،
ووجدت لك في مجلته الحكمة هذا الشهر بحسبك في البينيين
وأثره في الجراحات ، وأذكر أن قرأت لك منذ أشهر نصائحك
في التعقيم ...

- عجباً ! ... أتأبين أمثال هذه المباحث الجافة ؟
- لي بالطبِّ ولع ... أسمح بأن أقدم لك نفسى : « سميرة
عزت ، واتسابي إنما هو لاني ...
- أكان لك أن تتسبي لغير أهلك ؟
- كان لي زوج ... يرحمه الله !
- أماتَ منذ مدة ؟
- دفتته الساعة !
- الساعة ؟

- دفتته ونقضتُ منه يدي ، ونزلت فاستقبلتني
سيارتك ...
- سيدي ؟

- لقد صرعتُ هذا الزوج واتميت من أمره .

— إنها لالغاز !

— ألم أقل لك إنى نلت نصرأ حاسماً ؟ ما زلت أمثله وهو صريح

أماى ... انتهى .. انتهى كل شىء !

وصممت ، فقلت مدهوشاً : أفصحى ... !

فقال فى لهجتها ذات الرعشة المنغمة :

إنه قيسل فى نظرى ، أما فى نظره فليس يهمنى أن يعتبر

نفسه حيا ...

فتنفست فى ارتياح ، وواصلت هى حديثها :

أمر لا يؤبه له ... إنها خز عيالات الحياة . لنعد إلى قصة الطب .

أرغب فى أن تتعلم أنى من أسرة جمل رجالات أطباء ... كان جدى

طيبيا ، أحمد عزت باشا ...

— الدكتور أحمد عزت باشا ؟ ... من يحمل هذا الاسم ؟ ... إن

نظرياته الصائبة فى جراحة العين عزت معاهد العلم فى أوربة ،

وحظيت بأكبر تقدير ...

— وعمى كان طيبياً فى الجيش ، ولى أخ أتم دراسته فى كلية

الطب المصرية ، وهو الآن فى لندن يتخصص فى جراحة العظام ...

فلا يأخذناك العجب إذا وجدتنى أهوى الطب وما يتصل به ...

إنى أعيش محوطة دائماً بأدواته : مشارط ، محاقن ، ضمادات ...

أننى مشبح أبداً برائحة العقاقير ، حتى إنى لأشعر بأن الهواء الذى

استنشيقه يحملُ من ذراتها أرفق قصب ا
وظفقت تستنشقُ الهواء حو طاميل رقتيها . ثم عادت تقول:
إني معجبة ببحك الأخير في الملايا... لقد طالعت غير
مرة .
- حقاً؟

- إن طريقتك في تبسيط العلم بذلك الأسلوب السهل المحبب
لا يجاريك فيها طيبٌ آخر... كنت أقرأ هذا البحث فكأنني
أستمعُ بقصةٍ طريفة ... هذا فضلاً عما يتجلى في مباحثك
من نزعة إنسانية كريمة ...

- إني لجذبٌ مغتبطٌ بإطرائك مقداً، ولكن يلوح لي أن...
فقاطعتني كأنها غيرُ معبئة بقولي:

لما عرفتك الساعة تبين لي على الأثر وجه الصلة بين شخصك
وبين ما تخطه أناملك... إن مباحثك لمرآة صافية تراهي على
صفحتها المصقولة صورة نفسك في جلاء...

- سيدتي، إنك تغمريني...

فتابعت قو لها كأنها لم نسمعي:

إن الكاتب ليظلم مجبولاً كل الجهل عند القاري، مهما يقرأ،
فإذا ما تعرف به...

- وقعت الكارثة!

— فإذا ما تعرف به رأى القارىء نفسه تجاة حالتين، فإما انهار ذلك الصرحُ الشاخر بما يحويه من فتنة وسحر، انهار الا قيام بعده، وإما أن يزداد هذا الصرحُ تمكناً وسموًا، وحينئذ تتوثق صلة الكاتب بالقارىء، وترتفع مكاتته عنده درجاتٍ .

— أهو شعورٌ يشاركك فيه كل قارىء ؟

— يُخيل ذلك إلى ، وعلى آيةٍ حال فهو شعورى الخاص ...
وقد تعلمتُ منه أن أتجنب معرفة من أقرأ لهم ، إذ طالما منيتُ
بجنيّةٍ أمل قاسية ...

فتحنحتُ قليلا ، ثم قلت :

ألى أن أعرف موقفي في هذه القضية ؟

فتلاهبْتُ بطرف معطني ، وقالت : حسبك أن تحزُرَا
وانتهتُ ، فإذا « مصرُ الجديدة » تلوحُ أمامى دونَ سابقِ
إنذارٍ أو تمهيدٍ ، كأن الليلَ الغارقَ في ظلمته وصمته قد انشقَّ عنها
دفقةً واحدةً ، فبدتْ حِيالَ ناظرى كأنها مدينة مسحورةٌ من
مدائن الأساطير .

ومهمتُ جارنى :

إلى أسكن في شارع الخليفة المنصور .

— أعرفه جيدا ، طالما عدتُ فيه بعض المرضى ، سأبلغك إياه ...
وسرتُ ووجهتى شارع « الخليفة المنصور » ، وأظننا

الصمتُ وقتاً ... ورأيتُ فتاتي تعبتُ بجزرٍ من أضرارِ معطاني ،
وعيناها تحدقانِ أمامها لا تطرفان ، وأردتُ مواصلةَ الحديثِ ،
فأعبانِي الأمرُ ... وبدرتُ مني سَعلةٌ خفيفةٌ ، وألقيتُ جارتي
تقولُ وهي على حالها :

وددتُ أن أجدَ لي عملاً في الحياة ... إنني تواقّةٌ لأن
أمارسَ أيةَ مهنةٍ !

— أيُّ عملٍ تصبو إليه نفسك ؟

— أقبِلُ أيَّ عملٍ ... أريدُ أن أشغلَ وقتي ... أملاً ذلك
الفراغَ الذي يحيطُ بي ... أدفعُ تلكَ الوَحشةَ التي تشيعُ في نفسي !
وكانَ الهلالُ الوليدُ قد بدأ يلوحُ في الأفقِ البعيدِ شاحباً
ضئيلاً يتعثرُ نوره الوجِلُ بين الأبنية الضخمة ، فكأنه يجاذرُ أن
يكشفَ الستَرَ عن أسرارِ خليقةِ الكتمان ... وانتشرتْ خيوطه
الواهية على وجهِ جارتي فأكسبتها سحرَ الأطيافِ ... وتسَلَّتِ
الأضواءُ إلى شعرِها القاني ساجحةً مضطربةً على موجاته اللطافِ ...
ووجدتني أقول :

أتحسبنَ أن المرأةَ للعملُ خلقتُ ؟

فقلت :

لايُّ شيءٍ خلقتُ ؟

فأمسكتُ عن الجوابِ ، ورأيتني أخففُ من سرعةِ السيارةِ ،

وأبوابها تباطوا جعل سيرها أقرب إلى سير الأقدام ...
وخيل إلى أني آخذ بيد فتاتي أجوز بها الطريق مترجلا هيئن
الخطوات .

واختلجت شفتاي بقولي :

المرأة لم تخلق إلا لأمر واحد ...

- وما هو ؟

- إنها خلقت للحب !

فراعنتي منها نظرات ملتمة ، وقالت :

الحب ؟ !

- الحب وظيفة المرأة ، وظيفتها الأولى في المجتمع ... !

وعلا صوتها أكثر من ذي قبل وهي تقول :

وإذا كان هذا الحب أصل بلائها وجحيم حياتها ، لم تنل منه

غير الحية والإذلال ؛ فإذا تصنع ؟

- تبحث عن حب آخر .. حب جديد يحل محل الحب القديم

ويطاردته ... لا يفيل الحب غير الحب ... ألم تسمعي قول الشاعر :

وداوني بالتي كانت هي الداء ؟

ففضاحت في رفق ، وقالت :

وإذا أصابها الإخفاق في حبا الجديد ؟

- تبحث عن سواه !

— وهكذا... ١٤

— نعم... الحب... الحب دائماً... الحب في حياة المرأة
عنصر لا يقل خطراً عن الماء والهواء، بل إنه ليفوقها... إنه
عنصر الحياة الأول... ١

— إنى لأراه عَصراً من عناصر الدمار... إنه جرثومة
مرض خطير فتاك ١

— هيبه مرضاً.. هيبه أى شىء آخر... هو فى نظرى ألزم
للمرأة من أى شىء ١

— تُريدُنَا أن نكون دائماً صرعى هذا المرضِ
العُضال؟

— إن لبعض الأمراض تأثيراً سحرياً فى النفس فتتنجذب
إليها وتشغف بها، ولا ترضى عنها بالصحة بديلاً... والحب مرض
ساحرٌ جميلٌ يضفى على حياة المرأة لونا بديعاً أخذاً... إنه
ليدفعها إلى الأخذ بطراز رائع من العيش، كله «رومانسية»،
وقته... لن تصيب المرأة كل هذه المتع وهى مكتملة الصحة فى
رحاب الواقعية المتبدلة ١

فلادّت بالصمتِ هُنَيْبَةً، تائهة النظراتِ حاملةً،
ثم مهمت :

يبدولى أنك شديد الإيمان بالحب ١

-- بل إن لشديدهُ الإيمـانِ بأن المرأةَ لم تُخلَقْ إلا
للحبِّ ! .. إنها دُميمةٌ فاتنةٌ فياضةُ القلبِ بهذه العاطفةِ النورانيةِ
الوضّاحةِ ... إنها ...

فقطاعتني بصوتها المنغمسِ الهادئِ قائلةُ :
أتم أيها الرجال تريدوننا تماثيلَ « عواطف » لا أكثر ولا أقل ،
تنصبونها في أبهاءِ منازلكم لتفزعوا إليها إذا استبد بكم الضيق ... !
-- بل ننصبها في أعزِّ مكانٍ وأهلاًه قدسيةً وطهارةً ...
ننصبها في قلوبنا !

إنكم لتمرثون بهذه التماثيلِ لثرووا منها نفوسكم
الصاديةَ ، وتُشبهوا نظراتكم المنهُومةَ . ثم لستخذوها
أفكوهةً وسلوى ...

-- بل لنخر لها ساجدين ضارعين !
-- كلامٌ معسول ... إنَّ الأنايةَ لتحتلُّ من حياتكم
أكبرَ مكاناً !

فأرسلتُ طرْفِي إليها متفحصاً ، فوجدتها هادئةً القسياتِ ،
غارقةً في عذوبةِ فياضةٍ ، وقد أسبلتُ جفنيها ؛ كأنها مقبلةٌ على نعاسٍ
خفيفٍ ... فقلتُ في شبه همسٍ :

أعدتُ نفسي ضمن من تعين من الرجال ؟
فتخايلتُ على وجهها ابتسامةً رقيقةً ، وتحركتُ

شفتاها وهي تقول :

وهل أنتَ إلاَّ رجلٌ ؟

— أذكر أني سمعتك منذُ قليلٍ تشهدين بأنَّ في نزعةٍ إنسانيةٍ ...

فتضاحكت. واندفعتْ تعبتُ برُّ من أضرارِ معطني ... فقلت:
حذارِ يا سيدتي أن تقطعي الزرَّ .. إن مثل هذه الأضرارِ
عزيزُ المنالِ في الوقتِ الحاضرِ !

— لن ألحق ضرراً بمعطفك .. سأزكك لك كفه .. ألم تبيع بعد
شارعَ الخليفة المنصور ؟

وتلفتتْ حولها ملبساً، ثم مهممتْ :
أحسبنا قد تجاوزناه ..

— يبدو لي أنَّ الخليفةَ المنصورَ غيرُ متعجلٍ أن
يستنصفنا ... !

— ألا تعودُ بي ؟

— حتماً ...

ووقفت السيارة، ونزلت ...

فقالَتْ :

ماذا ؟

— على ربَّانِ السفينة أن يتَّبينَ مكانه من المنطقة التي حلَّ

فيها لكي يستطيع أن يعود أدراجه في أمان ...
وأدرتُ عيني حولي ، فإذا نحنُ على أبوابِ طريقِ
« الشوايس » ... وتجلت لي عظمةُ الصحراءِ المتراميةِ
الأطرافِ التي لا يحدها النظر ، الصحراءِ العظيمةِ بسكونها السابغِ
ورمالها المنبسطة تحت ضوءِ الأفلاك ، كأنها بسط من اللجينِ
موشاةٌ بشمينِ اللؤلؤ ... ومصرُ الجديدةُ رابضةٌ على مرمى البصرِ
كأنها حيوان ضخم من الحيوانات المنقرضة في العصور القديمة دهمه
الناس ، فتجمع بعضه على بعض ...

وشاهدتُ فتاناً تتركُ السيارةَ وتقول :

ماذا تقصدين بوقفيتك هذه ؟

فتطلعتُ إليها أتأملُها لحظة ، مُعجباً بقوامها اللدن ...
لم تكن بالفارعة ولا بالقصيرة ، ولم تكن بالبدينة
ولا بالضامرة .. عود خصبٌ ريان ، وجسمٌ متناسق التكوين ،
لا تنكر العين منه شذوذاً ولا هجنة .

وراحَ الهواءُ يهاجمُها في عنف ، ويضرمُ الثورةَ في شعرها
وملابسها ، فانبعثتُ جاهدةً تصلحُ من شأنها وهي تقولُ :
أين نحن الآن ؟

— عن كتيب من السويس ...

فصاحت :

الشوايس ؟

— أقصد أننا منها على بعد ساعتين ... !
واشتد عيبُ الهوايا بها ، فمَرَّ عَتُّ إلى السيَّارة ، وسرطان
ما عدت حاملاً معطني وقلتُ :

أطلب إليك باعتباري طبيباً أن ترتدي المعطفَ ...
فلم تُسبِدْ اعتراضاً ، وساءتْها على ارتدائه ، وكان سابغاً فضفاضاً
تهدلُ كمناءهُ على يديها . ففكرتُ في الضحك ، وهي تدور
على عقبيتها تتأملُ نفسها وتقول :

ليس في الإمكان أبدع مما كان ... !

— في رأيي أنه منسجم عليك أبداع انسجام ... كأنك في لبوس
الحمامة ترسلين دفاعك على مَصَّة القضاة ، أو في جُبَّة الأستاذية
تُلقيين محاضرتك في مدرَّج الجامعة !

وأخذت بيدها ، وسرنا متمهلين ، ورأيتها تطوفُ يبصرها
متوسمةً ، واستقرتُ عيناها على القمر الفتيِّ يحاول في جَهْد أن
يبددَ حلوكه الليل وهينمت :

إن الحياة ليست كريهةً كما تبدو للإنسان بعض الأحيان ...

لأنها تنطوي على جوانب لطيفة !

— هي ملأى بالسعادة لمن يريد أن يكون سعيداً ...

— وهل يكفي أن يرغب الإنسان في السعادة لكي يظفر بها؟

- نعم ، هذا رأي . وأرجو ألا أكون فيه مخطئاً ...
- لقد حاولتُ فلم أصيبُ منها شيئاً على الإطلاق .
- لَمْ تكوني في رغبتك مغلصَةً
فَسَطَمَحَتْ بعينها إلى ، وقالت :

قد فعلتُ المستحيل . . . ثم مالت يبصرها عني ،
وأطرقتُ شاردةً الفكر برهةً ، ولحمتُ قطراتٍ من الدمع
تنتثر على صفحة خدّها ، وألفتها بغتةً تُخْفِي وجهها في منديلها
ثم أخذت تجفف دموعها بمجلة ... وتبدأ أتيتُ منها وأنا أقولُ
في صوت رقيق :

لقد حدّثتني الآنَ بانتصارٍ باهرٍ نلتِهِ في معتركِ الحياة ،
فكيف يَبْنِي القَائِدُ والنصرَ حليفه ؟
فهمستُ بقولها :

يستوي النصرُ والهزيمةُ في نظري من كان مُوحِشَ القلبِ
فَارِعَهُ . . . الدنيا التي تتجاوبُ فيها الحركةُ والنورُ ليست
فيها أحسُّ إلاّ صحراءَ مقفرةً داجيةً ا
فلا طفتُ يدها وأنا أرددُ مبتسماً :

ألم أقلُ لكِ : وداووني بالتي كانت هي الداءُ ؟
فتوهجتُ عيناها ، وقالت متهدّجةً الصوت :
أحسبتُ أني ما برحتُ أحبّه ؟ ... محالٌ أن يكونَ في

قلبي ذرّةً من هذا الحبّ !

وراجتُ تُرسل النظرَ أمامها ، وهي لا تنبِس .

وبعد حين وجبتها بهمهم :

إني لا يجبُ كيف أحييته يوماً ؟ كنتُ غريرةً
طائشةً ... استهوانى بمعسول الأحاديث وخلابِ الأمانى ،

فوثقتُ به ... وثقت ثقةً راسخةً ... وكان الزواجُ ... !

وتوالت أيامُ صفاءٍ وهناءٍ ، وما هي إلا أن تبعثها أيامُ محنةٍ

وشقاءٍ ... انقلب هذا الزوجُ الصّينى مخادعاً أثمياً متغلغلاً في

الإثم والحداغ ... أصبحت حياتي معه جحيماً لا يطلقُ فيها

العيش .. ورضىَ أخيراً بالطلاق ، بعد أن بذلتُ له في سبيله

أسمى العرُوض ، وهو يسرف في مساومةٍ دلتُ على خسةٍ وضعةٍ

نفس ... كان هذا الذى نسّميه « الحب » ، أو على الأصحّ هذه

الجرثومة الخبيثة تنفثُ في دمي سموماً ، فلبثتُ حيناً أروضُ نفسى

على الخلاص من شرّها ، فتارةً أوفقُ وتارةً أخفقُ ، حتى لقد

عنّ لى فى ساعة من ساعاتِ يأسى شبحُ الاتحسارِ يستدنينى إليه ،

فكذت أسقطُ بين برائته ، وقضيتُ فترةً كلها كفاحاً وعناءً ،

حتى وقمت حادثة اليوم ، فكانت ختامَ المأساةِ وفصلَ المقال ...

ثقُ أن كل شيء قد انتهى الآن ! ...

— أو على وشكِ الانتهاء ! ...

— بل انتهى كل شيء إلى غير رجعة ، تصوّر أني تلقيتُ
منه اليومَ بطاقةً صغيرةً خطاً فيها كلماتٌ مفادها أنه مريضٌ
مشف على الموتِ ، يطمعُ أن أزوّدَ عينيه بنظرةٍ وداعٍ... وقلبتُ
البطاقةً في يدي لحظةً ... مريضٌ يلفظُ أخرياتِ أنفاسه يدعو
مطلقته إلى أن توّدعه الوداع الأخيرَ ... لستُ بالقاسيةِ حتى
أمتنعَ عن تلبيةِ دعوته في هذا الموقفِ الحرجِ ... مازال قلبه
حامراً بجي ... لمعتُ هذه الخواطرُ في رأسي فوجدتني أقفزُ نحوَ
البابِ دون أن أفكرَ في تغييرِ ثيابي ... وصعدتُ في أولِ سيارةٍ
لقيتني ، وحثتُ السائقَ ليمضُ سريعاً إلى البيتِ ، وكنتُ في
السيارةِ وهي تعدوني ألومُ نفسي على ما قد بدر مني في حقهِ .
أقسوتُ عليه كثيراً؟ ... أعاندته طويلاً؟ ... أما كان أجدراً
أن أصابره وألاينه؟ ...

وصعدتُ إليه مبهورةَ الأنفاسِ ، ودخلتُ حجرته ، فإذا
تظنُّ أني رأيتُ ؟

— ممدداً على سريره يعاني سكراتِ الموتِ .

— بل في منامتهِ الحريريةِ الأنيقةِ يتوسطُ حجرته ، مشرقُ
الطلعةِ يتوقدُ مرحاً ويقظةً ، وعن كُتبٍ منه مائدةٌ تتزاحم
عليها أكوابُ الشرابِ وصحافُ الطعامِ ، وتقدّمُ مني ثملاً يتخلع
والكأسُ في يمينه ، وقال لي :

« ها قد حضرت .. » ، ووقفت مصعوقة لا أبدى حركة ،
ولا ألفظُ حرفاً . وأستأنفَ توله :

« اجلسي : اجلسي ، إنك مجهودة . ما أشدَّ جبك لي ا .
ولما وجدني جامدةً في سكاني أنظرُ إليه مأخوذةً اللَّب . اقتربَ
مني وأمسكَ يدي ، وأقبلَ عليّ ، وأحسستُ أنفاسه المخمورة
تصافحُ وجهي ، وفه المتدلي يتدانى إلي في ووجدتني بغتةً وقد
ارتفعتُ يدي وأهوتُ عليه بصفعة اختلاج لها وترنحَ وطارتُ
الكأس من يده ... وحدجته بنظرة زكراء ، وصحنتُ به :

« إني أكرهك ... أمقتك ... من تظنني أيا النذل ؟ »
والفتفتتُ إلي ، وكأن عينها بقعتنا دم فائر ، وقالت :
أقسم لك إنه لو كان معي حينئذ سلاح لقتلته شرقتة ... لقد
خرجت أعدو من مسكنه لا أكادُ أستبينُ طريق ، ومصادفت
سيارتك فدخلت فيها على الأثر ، ثم انكبتُ على يدي أبكي ...
وأبكي ... وأبكي .. وتخاذلت قواي ، وخدرت أعصابي ،
وأحسستُ بالغفوة ، تسري في أوصالي ... :

وسرتُ معها جنباً إلى جنب . دون أن تتناقل الحديث . وبعد
هنيهة أقيتُ عليها نظرةً فإذا هي تعبتُ بين أصابعها بحليلة
مشبوكة في صدرها ، فمشمشتُ :

حيلة لطيفة ا

— لا بأسَ بها ...

وخلعتُها وناولتني إياها، فأخذتُ أرددُ فيها النظر، وكانت حليةً ذهبيةً نقشَتَ عليها صورةُ أبي الهول، وتحت الصورةِ بضعُ كلماتٍ لم أستطع تبيئتها. فقالت:

مكتوبٌ فيها: «تذكاري للمتطوعاتِ الملائرياءِ... لقد منحتني هذه الحليةَ لجنةُ فتاةِ النيلِ تقديراً لعملي في جمعِ التبرعاتِ.»

— أكنتِ فيمنِ يَحمَنَ من التبرعاتِ؟

— جمعتُ وحدى مائتي جنيهٍ!

— كثيرٌ ما حاصرَتني هؤلاء المتطوعاتُ وسَلَبَتني ما في

محفظتي من نقودٍ... أكنتِ من هؤلاء السارقاتِ؟

— يجوز!

— بل أو كذَ ذلك...!

— كيف تُوكِذُ؟...

فصمتُ برهةً، وأنا أهدقُ أمامي، وقلتُ في لهجةِ لينةٍ خافتةٍ:
على أيةِ حالٍ، أشعرُ شعوراً قوياً بأنك سَلَبَتِني شيئاً!

— أتعني محفظتكِ؟

— بل شيئاً أغلى وأعزَّ...!

ورنوتُ إليها، فرأيتُ ابتسامةً هادئةً ترفُّ على عيَّها،

ومدَّت يدها إليّ، وقالتُ:

هاتِ الحلية ...

فناولتها إياها ، فشبكتها في مكانها من صدرها ، فقلت :
يظهر لي أن كلاً مناهتم بالمalaria ... إن هدفاً من أهداف
الحياة قد بدأ يجمع بيننا ويؤلف ...
فعدت تعبت بحليتها ، وهي تقول :
إن للمalaria جرثومة أرجو يا صديق الدكتور أن نكون
بمنجاة منها ! ...

فألقيتُ نفسي أندفع قائلاً :

لقد كشفَ الطبُّ حديثاً أن جرثومةِ المalarيا فضلاً في القضاء على
جراثيم بعض الأمراض المستعصية ...
فأجابت خائضة الصوت وهي تنظرُ في حليتها وتعبتُ بها :
أتظنُّ أن جرثومتك الخاصة بالمalaria قادرة أن تقضى على
مرض عضالٍ كاد يودي بحياة ١٩

— إنى باعتباري طبيباً تعمقتُ في دراسة هذه الناحية ،
وباعتباري أيضاً صديقاً تنطوى جوانحه على إخلاصٍ وثيق ،
أقولُ والأملُ ملء قلبي :

سيتحققُ ذلك بلا ريب !

فرفعتُ عينها إلى ، فلبحتها نديتين ...

فأخذت يدها بين كفيّ وجعلتُ الألفها، وعيناي لا
تفارقان عينيها ...
وآشابهتُ نظراتنا وقتاً ، ونحن صامتان ...
وإذا بي أميلُ بعمى على يديها ، فأوردُهم — أقبلةً حافلة
حرياً ...

حُكَّام من السماء

ماذا يكون من أمر العالم لو خلا من الرجل وانفردت
به المرأة ؟

وماذا يكون من أمره لو خلا من المرأة وانفرد
به الرجل ؟

طُلبَ إلى أن أجيبَ عن هذا السؤالِ ، فأدرتُه
في خاطري برهمة ، ثم شغلتُ عنه ؛ فلما احتسوا في عالم
الكرسى ، رأيت فيما يرى النائمُ أني في عهدٍ من عهودِ
الفراعنة سحيق ، وأن أحدَ الكهننة في مَنْف ، قد
أقبلَ يقصُّ عليَّ حديثًا عجيبًا . فأنا أروية هنا كما
وعته سامعي :

قال الكاهنُ الفِرْعَوْنِيُّ :

« زعموا أنه في غابرِ الزمانِ المتغلغلِ في الأزلِ ؛ حين
فرغَ أبو الآلهةِ دَرْعَ ، من خَلْقِ الأرضِ ، ألغماها تَمِيد
ولا يقرُّ لها قَرَارَ ، فأجواؤها تعجُّ بثورةِ العناصرِ :
أهوية تغصف ، وحممٌ تنفجر ، وبقاعٌ تنخسف ،

وأخرى تتسامق . فاستوى أبو الآلهة على عرشه يدبر
الأمم ، وقد نوجت رأسه سخب متألقة يبهر ضوءها
الأنظار ، واسترسلت لحيتته الشهباء على الأكوان كأنها
مظلة الأمان ، فأخذ يمشطها بأصابعه الفضية الشفافة
فتنتثر منها نجوم براقه تهاوى في السماء . وراح يشرح
بصره في الفضاء الأكبر ، حيث الكواكب المترامية تلتصق في
خشية وتهيب .

وكان روع ، قد أقام على كل كوكب منها إلها من عشيرته
الذكور والإناث .

واستقرت عينه بعد طوفة شاملة ، على كوكب صخري
صلد ، فصاح روع ، نادياً :
يا شتاء ! ...

فاختلج الكوكب ، وقذف بحاكمه «شتاء» بين قدمي أبي
الآلهة ، وكان إلها ضخم الجرم صلب العود شديد الأركان .
يلتحف عباءة ثلجية فضفاضة ويبدو على وجهه شارب غليظ
من جليد متحجر . فأمره روع ، أن يخف من فوره إلى الأرض
وأن يُخمد ثورتها ويحكم أمرها ، لخنا «شتاء» رأسه إجلالا
وطاعة ، وانطلق يعدو في الأفق هابطاً إلى الأرض ، فكانت
تهتز عباءته في هبوطه ، فتساقط منها جنادل كالجبال يسمع لها

هدير صخّاب .

ومسّ دشتاء ، الأرض ، وبدأ تجوّاله في مناحيها ، يخطو
خطواته الثقيلة الفسّاح ، ويصبحُ صبيحاته المدوّية العاتية ،
فتنكشُ العناصرُ النائرة ، وتذعنُ لسلطان الحاكم المسيطر .
وتابع دشتاء ، أخطوه هنا وهناك وهو يلوّحُ يديه ينة ويسرة .
فإذا بأديم الأرض يغشاهُ البياض ، وإذا بهذا البياض يتكاثرُ
ويتكاثفُ طبقات بعضها فوق بعض . و دشتاء ، يوالى سيره ،
وقد ساخت قدماه الضخمتان في هذه الطبقات . وأراد أن يركنَ
إلى مكان يستقرُّ فيه بعد أن اطمأنَّ إلى أن الأرضَ قد خمدتُ
ثورتها وشاعَ فيها الأمنُ والسكينة . فطوّفَ يبصره حوله ، فألنى
قمةَ جبلٍ شاخٍ متميزةً بين قمم الجبال ، كأنما أعدتُ لتكونَ
عرشه المختارَ ، فتسنّمها وجلس عليها جلسة الفاتح المنتصر .
وطال مُكثه على رأس الجبل لا يبدى حراكاً ولا تطرفاً له
عين ، على فبه ابتسامة ثابتة جامدة ، ابتسامة زهو وكبرياء ...
وتقضتْ منونَ من الأحقاب لا ندرِك مدّأها ، ورزّحَ
على الأرض صمتٌ راكدٌ موثس ، وأظلتها عتمة كداه موحشة ،
وانكشيت الأرضُ متقلصةً مقشعرةً كأنها تريدُ أن تحتّمى من
ذلك الزمهرير الذي ضربَ عليها رواقه ، واختلجتْ اختلاجةً
شديدة وهمهت :

إنه الموت ... الموت الوشيك !

وعلى حين فجأة ، نادت من الأرض صيحة توسل وضراعة
إلى أني الآلهة «رع» ، تبتهل أن يرحمها ، وإلا كان الغناء مصيرها
وكانت الصيحة تطوى على جزع اليأس الذي سُدت في وجهه
منافذ الرجاء ، فرق لها قلب «رع» . وأوحى إلى «شناه» أن يرتد
إلى كوكبه الذي كان حاكماً عليه من قبل ، فسرعان ما أطاع
الإله أمر مولاة ، وغادر الأرض يخترق الآفاق مجلجلا
تهتز عباءته الناصعة المفضضة فتساقط منها الجنادل تدوي
وتهدر .

وطوف أبو الآلهة «رع» بطرفه لحظة في اللآنهاية الأبدية ،
ثم استقر على كوكب كان يتألق بنور مندي ، فصاح منادياً :
يا «صيف» ، ... !

وفي طرفه عين كانت بين يديه غادة هيفاء رائحة الوسامه ،
كأنما صيغ قوامها اللدّن من لؤلؤ رطب ، يتعوج عليه خصلات
شعر أملس حالك ، يتضوع منه نسيم رضى فواح . قرأت
على وجه أني الآلهة بسمة رضا واطمئنان . وهينم :

أنت خير من يحكم الأرض !

فأقبلت عليه «صيف» ، تتهدى في رفق وخشوع ، وانحنى
على يديه ، ومسّت بشفتيها المتقديتين كالبحر أطراف أنامله

الفضيَّة الشفافة ، فأسرَّع أن أحسَّ الإلهَ الأعظمُ انتفاضةَ هيئتهِ تسري في أوصاله ، فنحَّاهما عنه مُتلفظاً وهو يقولُ :

حسبك يا صيفَ ... اهبطي الأرضَ بسلام !

وحلَّتْ « صيفُ » ، على الأرضِ ، وبدأتْ تجسولُ على أديمها في رشاقةٍ ولينٍ ، تنقلُ خطاها وئيدةً مترففةً ، فتطلعتْ إليها شواخِ الجبالِ بهاماتها الثلجيَّةَ مأخوذةً مسحورةً ، وما هي إلاَّ أن تسابتْ ذائبةً من روعةِ تلكِ الفتنةِ التي لم يكن للأرضِ بمثلها عهد .

وواصلتْ « صيفُ » سيرَها ، وهي تنسطُّ يديها مرةً بعد مرةً في هوادهٍ ولطفٍ ، فإذا بالأزاهيرِ تكسو أديم الأرضِ ناضرةً بهيجةِ الرِّواءِ ، وإذا العنمةُ الكنداءُ الموحشةُ تلوذُ بالفرارِ أمامَ أفواجٍ من باهرِ الضيَّاءِ ، وإذا الماءُ جداولُ تجوسُ خلالَ المروجِ الخضرِ ، وإذا الأشجارُ تهدلُّ أغصانها وتورق حافلةً بأطيبِ الثمرِ .

وابتهجتِ الأرضُ بهذا العهدِ الجديدِ ، فما لبستْ في غابرها البعيدةِ حلةً بهيئةِ كالتي تبدُو فيها اليومَ وتطلعتْ العناصرُ متشوقةً إلى محيِّدِ صيفَ ، تتملِّقُ جمالَ هاتينِ العينينِ الحالمتينِ تشبيحُ فيهما الوَداعةِ والصفاءِ .

فأما « صيفُ » ، فقد اطمأنتْ بهذا الفوزِ الذي نالتهُ ، فقصدتْ

إلى خيمةٍ ظليلةٍ وأعدتْ لنفسها فراشاً من الريحين، واضطجعتْ عليه، فأخذتها غفوةً هادئةً، وكانت تردّد في نومها أنفاساً حارة تنبعثُ من حولها فتذهبَ منتشرةً في شتى الأنحاء .

وطالتْ غفوةً دصيف ، مثينَ من الأحقاب لا يُدرِكُ مداها، وهذه الأنفاسُ الحارّةُ المتلهيةُ ما تبرّحُ ساوية لا يجبو لها أوار . ورزح على الأرض ركودٌ خانقٌ ، فأخذت الأشجارُ تصوّح ، والأزاهيرُ تنوى ، والماء يتبخّر من وقدة القيظ . وأقبل الجفافُ ... الجفافُ القاسي يحصدُ بمنجله كلَّ نبت ، ويمتصُّ عصارة الحياة في كل صقع ، فاستحالت المروج الفيّاحة يباباً بلقماً ، فعلى مسدِّ البصر صحارى ممحلة تتصاعد من رمالها أبحرةٌ لائحةٌ ... وثمة الصمت ... صمت مرهوبٌ يتجلى فيه الفناء ... وأطلت العناصرُ من شقوقها لاهثة عطشى . ولم يبق من ذلك الفردوس الغارب إلاّ تخيلات ثلاثٌ تجعدت بشرتها وانكششت فطاطات هامتها تظللُ دصيف ، بسعفها اليابس المصفرّ . وبين الفينة والفينة تروّحُ وجهَ الإلهة الحسنة المسترسلة في نومها ووجهها ينظى .

وصاحت الأرضُ تسغيثُ بأبي الآلهة ، ضارعةً إليه أن يُسقيدها من ذلك السّعير ، وأن يردّها عنها حكمَ تلك الإلهة الكسولِ التي لم تحسنْ من فنون الحكم إلاّ أن تُضرم النار ثم

تمام حَالِمَةَ ... ١

واستشاطَ أهر الآلهة غضباً ، واهتزَّت لحيشه الشهباءُ
المسترسلةُ على الأكوان ، فقصفت الرعود ، ولتمت البروق
وتهاوت الشهب . وعجيب رَع ، لهذا الكوكب الأرضي
الذي لا يَرْضَى بحال ، وخشعت الأرضُ فرعاً من نِقْمَةِ
أبي الآلهة ، وانعقد لسانها لا يَنْبِسُ ... فنادى رَع ، :
يا دشتاء .

وأمره أن يحل من ساعته على صيف ، ويستأنف
على الأرض حكمه الجباراً ...

وهبط دشتاء ، الأرض ، وقد نفش حوله عبادته
الثلجيةَ وقل شارب الغليظ المتحجر ، فخوراً تياهاً
بتلك الثقة التي أولاه إياها رب الأرباب . وجعل بحوب ذلك
القصر الرحيب بخطاه الثقيلة الصلبة يتلفت ذات اليمين
وذاة الشمال ، باحثاً عن تلك الإلهة التي عانت في أرضه
فساداً ، فهدمت ما بنى وخربت ما عمر . ومضى في
تجوّاله وقد لفحته شدة الهجير ، فألم برأسه
صداع ، فهمهم :

ألا سخفاً لهذه الإلهة التي تدعى صيف ، ... إني لأجد لها
أثراً ، لقد خشيت بآسى ، فوكت هرباً

وأطلق قهقهة راعِدةً ، فأسرَع أن تجمَعَت في الساءِ
غِيمةٌ جمعت تكائفاً
وبيناهو في طريقةٍ وقد أجهَدَ السَّيرُ ، إذ تراءت له كومة
من السَعَفِ اليابس ، فصاحَ بها :
ماذا أنت ؟

فاشرَأبت النُخَيْلاتُ الثلاث المِجَافُ مذعورةً ،
والنومُ يتطايرُ من أجفانها ، وقامت في جُهْدٍ وإعْياءٍ تحاول
أن تُقومَ أودها وتأسِّمَ شعنها ، وتستقبلَ تلك الهبَّةَ
الباردة التي أقبلت من حيث لا تدري ، وكانت الغيمة المتكاثفة
قد أخذت تتلبدُ ويقسأطُ منها رذاذ .

ووقف « شتاءً » يُحدِّقُ ، فإذا بحسناءٍ ممدَّدة على
هَشِيمٍ ؛ يُغطِّي جسمها خصللاتُ شعرها الأملسِ الحالكِ ،
وهي مستغرقةٌ في سُبات عميق ، ووجنتاها تتقددانِ بِحُمْرَةٍ
قالية . . . وهمَّ « شتاءً » ، أن يرسلَ صَيْحَةً يبعثُ بها تلك
الناعسةَ من رقادها ، ولكن الصيحةَ ارتدَّتْ إلى حَلْقِهِ . . .
وطالت وقذفته حيالها ، وهو يرْمقُها متوسماً . . . ودبتُ
الحيرةُ إلى قلبه ، واتتابه قلقٌ ، ورأى أن يسْعَلَ ، ولكنه
وجد غادته تحركُ أهدابها ذواتِ الظلال . . . وما هي
إلا أن تطلَّعتُ « صيفاً » ، وهي تقولُ :

من ذا الذى جاء يُقَلِّقُ راحتي ؟
وتقدّم دشتاء ، خطوةً ، وهو يُردّد في أدب
كبير :

عفوك ... عفوك .. لم أقصد أن أزعجك من
منامك ... إذا رغببت في أن أمضي عنك أطمعت
من فورى ا

— من أنت ؟ .. وماذا تريد ؟

وكان لصوتها غنةٌ فائزةٌ تبعثُ في النفس الأحلامَ
العذابَ . وأحسّ دشتاءُ ، بألفاظها تتسرّب إلى حنايا نفسه ،
فتورثه شيئا من التخاذل . فقَبَضَ على شاربه بمحاول أن
يفتتله ، ليشدّ من عزيمته ويثبّت القوة في كيانه ،
فوجد ذلك الشارب الضخّم المتحجّر قد تراخى هزيلا
يتصبّب قطرات ... واعترته رغبة زلزلت أركانه ،
ونظر إلى صيف ، فوجدها تتمطّي في استرخاء ، ويتضوّع
منها شذاً طيباً ، وسَمِعَها تُردّد :

من أنت ؟ ... وماذا تريد ؟

ورأى نفسه يندائى منها ويحنو ، ثم يقول بصوت

حسن :

إني دشتاء ... جئت أونسُ وحدثك ا

وأخذ يدها يُعينها على النهوض ، فرئتُ إليه بِسَامَةِ
الغُرِّ في تدلُّلٍ وإغراء . ثم أسبلت جفنيها وقالت :
جميلٌ منك أن تؤنسَ وحدتي ...

وأدركَ « شتاء » ضعفٌ بالغ ، ففرَّحَ إلى شاربه يستمدُّ منه
العون ، فلم يجدْ له من أثر . وإذا به تسائلَ على الأرض وتجمعت
من ذوبه بركة صغيرة ، راح « شتاء » يتأملها حيرانَ دهشاً ، فأبصر
وجهه وقد استحال وجهاً صبيحاً أمردَ يزهو قوةً ونضارة .. وسمع
« صيف » تقول :

كنتُ أعلم أن « شتاء » شيخٌ أشيبٌ ، ولكنني أجدك قتي
في ميعة الصبا !

وتلغَّم « شتاء » فهمهم بكلماتٍ متقطعة ... وأراد أن يدنو
منها ، ولكنه أحسَّ عباءته الثلجية تذوبُ ... ياللهول ! ... إن
كساءه الوحيد يزولُ عنه ... وبان صدره العريضُ ، وانكشفتُ
ساقاهُ المكتنزتان ، فانتابه جزعٌ ، وأخذ يتشبَّثُ بما بقى من
عباءته المتزايلة ليسترَ نفسه .

وأطلَّت العناصرُ من أوكارها ، وعطفقتُ تهامسَ ويبتسمُ
بعضها لبعض ، وترنحت النُخيلاتُ الثلاثُ من طربٍ ... وازدادت
حيرة « شتاء » ، وكثرتُ تلفته حوله لا يعرفُ ماذا يصنع ؟ وإذا
بـ « صيف » تقولُ في صوتها الأغنُّ :

لا عليك ... اذن مني لآخفيك بشعري عن مرني
العيون!

وسرعان ما نمت حشيشة خضراء نضيرة مكان ذلك الهشيم
الذي كانت تتمدد عليه ، صف ، ... واستجاب لها « شتاء ،
فاقترب منها ، فددت إليه ذراعها ، وأمسكت بيديه ، وهممت
تقول :

شدما أنت مقرر ... توسد صدري لتنعّم بدفء طيب !
ولم يملك « شتاء ، إلا أن يذعن لما شاءت ، ووضع رأسه على
صدر الحسنة ، فسدت عليه خصلات شعرها الفينان ... وتلاقى
الوجهان ، وتشابكت النظرات ، وما أسرع أن غابا معا في قبلة
أغلب الظن أنها لبثت عصوراً متطاولة !

وترادفت مثنون من الأحقاب وعاد للأرض زخر فيها الفاتن ،
جريت الأنهار ، وتجاوبت البساتين بالأغاريد ، وسرى النسيم
في الأجواء أريجاً عطراً ، وانطلقت العناصر تنغني وتراقص ،
وأشرقت على الأرض ابتسامة رفاقة ؛ إذ كانت تزهو بحلة
قشبية رائعة ...

وكان « شتاء ، و « صيف ، يسيران جنباً إلى جنب ، وكل
منهما أخذت بخنصر صاحبه ، وهما يطوران في تلك المروج السعيدة
يقطفان الأزاهير ، ويميلان على الغدران يرتشفان نحر المحبة

والهناة... وكان يدرج حولها طفلها الوضيان : « ربيعٌ ،
و « خريفٌ » ، ...
فأما « ربيعٌ » ، فعنداءُ ذاتِ عيونٍ خضرٍ تجمعتُ فيها
فتنةُ الزهور .

وأما « خريفٌ » ، فإنه قى ذو شعرٍ ذهبيٍ وهاج .
وطال أمدُ هذا النعيم ، فحسبت الأرضُ أن ذلك خلدٌ ليس له
منتهى ، فأخذتها العزةُ ، وركبتها الخيلاءُ ، فطفقت تتطلعُ إلى
الكواكبِ نياهةً تتعالى عليها بضحكاتها ، وترشقها بسخرياتها .
ودبت الغيرةُ في قلوب تلك الكواكبِ وكثرَ بينها الهمسُ ،
همسُ التآمرِ والكيدِ ، إذ عزَّ عليها أن تستأثرَ الأرضُ الغانيةُ
بهذا النعيمِ المقيمِ الذي هو من خصائصِ العالمِ الباقي . ثم أرسلت
الكواكبُ من يوسوسُ بالوقعةِ في أذنِ أبي الآلهةِ «رع» ،
فتعقدَ جبينه غضباً ، ورى الأرضَ بشظيةٍ من نظراته المتأججةِ ،
وهو يدمدمُ :

تباً لهذه الأرضِ التي لا تلقى الأكوانُ منها إلا العناءُ
وزلزلت الأرضُ زلزالها من هول تلك النظرةِ ، وكادت
تبعثرُ أشلاءً .

واستطرد أبو الآلهة يقولُ :

كيف عنك أن تستمتعي بهذا النعيمِ الدائمِ وتجعليه خالصاً

لك في عالمك الفاني؟ أما علمت أن الفردوس الخالد إنما هو
وقتاً على العالم الآخر؟

ثم التفت إلى «صيف» و «شتاء» قائلاً لهما:

أما أتما فلي، ممكاً شأن أي شأن!

لجنا الإلهان على ركبتيهما غاشعين...

وانبعثت الأرض صارخةً موكولةً، تنسُرُ الرحمة .

ولكن «رع» لم يُلقِ اضراعها أذناً ، وازدادت الأرض

نحيباً ، فانهمست دموعها طوفاناً دقاًقاً كاد يأتي على أرجائها

جميعاً ، وترات العناصر على الأمواج مجهودةً يكاد يذركها

الفرق ... واضطرب «شتاء» أن يحمل «صيف» على

ساعديته يخرُّ بها العُباب ، على حين تعلقت «ريبع»

و «خريف» بمنكبيه برجُفان ... «ظل» الماء يتعالى حتى

بلغ صدر «شتاء» والأرض ما برحت تنحبُ وتنضرع ،

وازداد الماء علواً حتى لامس دقن «شتاء» ، وكلت يداها ، وأحسن

بقدميه يُصبيهما الخور . فانطلقت من حلقه صرخة استغاثةٍ

حسرى وقال :

يا أبا الآلهة ... إننا أتباعك المخلصون ... إننا أبناءك البررة

فلا تدعنا فريسة للهلاك!

والتى «رع» ، نظرةً عاجلةً ، فبصر بـ «صيف» وهي مددة

على ذراعسى ، د شتاء ، بقوامها اللؤلؤى الرطب تكسوه
خصلات شعريها الحالك الأملس ، وهى ترسل إلى أبى الآلهة
نظرات توسل واسترحام من عينها الناعسة ذات الأهداب
الطويلة السود ، وقد بدا على عيها شحوب الإعياء ...
وحك أبو الآلهة رأسه ياصبمه ، فانتفش شعره ، فما أسرع أن
توهجت قبة السماء ا

أخيراً رق للأرض قلب د رع ، ... فقال لها :
كفى نحيبا .. لو تركناك تذرفين دمك المتون لعم الفضاء
طوفان طام مواج ا
وجأة أخذ الماء يفيض على وجه الأرض ...
ونطق الإله الأعظم بحكمه :

رضينا أن نسل زمامك إيتها الأرض إلى هؤلاء الآلهة
الأربعة : شتاء ، فربيع ، فصيف ، فخريف ... على ألا يحدث
بينهم اجتماع في زمان واحد كما حدث ، فابتلوا الأمر متعاقبين ،
لكل منهم نوبة لا يعدوها ولا تعدوه ا
ومال يبصره إلى الآلهة الأربعة ، قائلاً :

لقد سمعتم حركتى ، فاكفونى أمر هذه الصنخابة التى
لا تقنع بشىء ... ا
وأشار بصوت لجانه الشمسى إشارة الإبرام ، فأومات الأفلاك

إيماءة الطّوع والإذعان...١

هذا ما وَعَيْتُهُ من حديثِ الكاهنِ الفِرْعَوْنِيِّ
في غَفَوَاتِي .

فهل كان هذا الحَلْمُ إيماءً بفتحِ الجوابِ عن السؤالِ
الذي وجّهَ إليَّ في مصيرِ العالمِ لو انقردتْ به المرأةُ وحدها
أو الرجلُ وحده ؟
لست أدري... والله أعلم !

ولى الله

في أمسية من أمانى مايو المشبعة بأنفاس الربيع ،
جلستُ إلى صديقى برهان بك ، فى حديثه الفصحاء ، بمخناه
الأنيق فى الجزيرة ، تتطارح أحاديث ذات شجون .

وكان صديقى من رجال الضبط والامن الذين تبوءوا
مناصب الإدارة فى شتى الأقاليم ، حتى أدركته سن الإحالة
إلى المعاش وهو وكيل للميرية الدقهلية . فاستقر به المقام فى ذلك
المتعنى بعد طول تطواف ، وبعد حياة صاخبة فى مطاردة
الأشغال وإقرار الأمن فى ربوع البلاد .

وعلى الرغم من أن صديقى قد نيف على الستين ، فإنه
ما برح محتفظا بطابع الجندى : قامة فارعة ، و صدر هريص ،
وساعدان مفتولان ، ووجه يجمته شاربان مسنونان .

وفرغت جعبتُننا من الأحاديث فى جلستنا الممتعة ، فما هو
إلا أن غشينا الصمتُ بعض الوقت ، وقد علقَت عيوننا
بالقمر وهو يتعالى فى الأفق مزهواً السحاب ، يبعث بضياه

الآلاء خلال الألفان كأنه ذوبُ الفضة يتسائلُ قَطرات ...
ولما طابَ لي المجلسُ ، وخشيتُ أن يمتدَّ الصمتُ فيسرعَ
إلينا المللُ يشوبُ ما نحن فيه من صفو ، اقترحتُ على
« برهان بك ، أن يقص عليَّ أعجبَ حادثٍ وقع له في حياته
الإدارية العامرة ...

فتبسّم لي الصديقُ وهو يرقبُ القمرَ هادئاً . النظراتُ . ثم

قال .

يرى الناسُ أن حوادثَ الإجرام التي تمرُّ بنا متشابهة في
أكثرها لا جدّة فيها ولا غرابة . وقد يكونُ ذلك الرأى على
حق . ولكن نبيّن ذكراً يأتي حادثه تميّزُهُ عن سائر الحوادثِ
بمّا كان لها من طرّافة ترتفعُ بها عن المألوف .

كنتُ آنئذٍ حَكَمداراً ، لمديرية الشرقية ، أقيم في المسكنِ
وحدى ، يخدمني الثوبى « خير ، الذي رافقني في كثير من
تنقّلاتي في البلاد . وقد عهدتُ فيه الأمانة والنشاط ،
فخرّصتُ عليه وبرّرتُ به . وفي يوم ما استأذنتني في أن يتغيّبَ
نهاره وليله لشأنٍ يتعلق بعلاج زوجته ، وكانت مريضةً أزمّنتُ
علّتها ، وطالت شكواها .

وعاد خادمي في غد ، يعدّ لي الفطّور ، فسألته :

ماذا قال لك الطيبُ يا خير ؟

فأبطأ جوابه لحظة وهو يتشاغل ببعض عمله ، وقال :
لم نذهب إلى طيبب يا سيدي ...
- فإلى من ذهبت بزواجك إذن ؟
فجعل يُسَنِّظُ وضع الأطباق على المائدة ، وهو يقول
في هممة :

إلى الشيخ الطشطوشي ياسيدي !
- ما شأن الشيخ الطشطوشي بمرض زوجك ياخير ؟
- أنت تعرف ياسيدي أني لم أدع طيبباً إلا طرقتُ بابه ،
وقد أرسلتني أنت إلى من تثق بهم من الأطباء ، مع الإيصاء بي ،
فلم أفر منهم بطائل كما تعلم .
وأخذتُ أفنتُ الخبز في اللبن ، وأتناولته بلا حَقَّتِي ...
م قلت :

وهل صادفتُ بُغَيْبَتَكَ عند شيخك الطشطوشي ؟
فاعتدل في وقفته ، وقال في لهجة جدٍ ويقين :
كانت زيارة موفقة ياسيدي !
فرفتُ إليه بصري أقول :
هل شفى الشيخ الطشطوشي زوجك ؟
- لقد خففتُ آلام الظهر كثيراً عن ذي قبل ، ولم يبق
علينا إلا أن نزر الشيخ مرة أخرى فيتم الشفاء ...

فقلعت بملعقتي وأنا أصعدُ فيه النظر ، وقد سَدَحَتْ علي
في ابتسامه ، وقلتُ :

أعلى ثقةٍ أنتَ بأن زرجك استشجرتْ فائدة حقة من
هذا الشيخ ؟

فقال في صوتٍ ملؤه إيماناً بما يقول :

ثق ياسيدي أن لهذا الشيخ قوةً خارقةً في شفاءِ المرضى ...
الناسُ جميعاً يتحدُّونَ بكراماته !
— وأين مكانه ؟

— معتكف في زواية على أطراف قرية أبي العرائس ...
وعلمتُ أن القرية تنأى عن العمران ، فينها وبين « الزقازيق » ،
حيثُ أنا مقيمٌ ، ثلاثُ ساعات : في السيارة نصف الطريق ،
وعلى الركوبة نصفه الآخر .

وفي مدخلِ الليل ، وأنا أدخنُ لفاقي بعد أن تناولتُ
العشاء ، أخذَ خادمي « خير » ، يرؤى لي أشتاتاً من أنباء
كراماتِ شيخه « الطشطوشي » ، وسماحة نفسه ونبل خلائقه ،
فاستثار فضولي بهذه الأحاديث ، وهو يندفع لا يَمَسُّ^ل
ولا تنفدُ له كلمات ، وأنا أستطيبُ حكاياته وأنباءهُ وأستعبده ؛
إذ كنتُ مشغولاً بدرسِ نفسيَّاتِ الشدَّاذِ من الناس في
هذا المجتمع ، ولي ملاحظاتٌ وإحصاءاتٌ شخصية أستلهمُ

في شأنها تجاربي .

وقلت لخادمي « خير ، أخيراً :

متى تزورُ الشيخَ زيارتكَ الثانية ؟

— يومَ الخميسِ المقبلِ ياسيدي ...

— ربما صحبتك يا خير ...

فنظرَ إلى نظرةٍ حيرةٍ وتساؤلٍ ، قائلاً :

سألتَ يا سيدي ... هل لك عنده طلبية ؟

فابتسمتُ ابتسامةَ إشفاقٍ ، وقلتُ :

لا يخلو الجسمُ من علةٍ يا خير ...

— أبشركَ بأن الشفاءَ سيتحققُ على يديه !

— سأجربُ طبَّ شيخك في علاجِ قدمي ... أنت تعلمُ إلى

أشكو التواءاً خفيفاً فيها ...

فقاطعتني « خير ، قائلاً :

من جرّاءِ الحوادثِ المعروفِ يومَ خرجتَ تطاردُ نقرأ منه

الجرمين في بعض قرى أسيوط ، فسقطتَ عن فرسك ؟ ...

— الأمرُ كذلك .

— رقيقة واحدة من شيخنا الطشطوشي متمسحاً عنك الألم

لا محالة .

فنفثتُ دغان لفاقي متضاحكاً ، وقلت :

على بركة الله !

انبلجَ صبحُ الخميس ، فصحوت مع الطير . وتكرت في
ملايس شيخ بلدة ، وساعدني على اختفاء شخصيتي أن بشرتني
أميل إلى السمرة ...

واستأذن عليّ خير ، فما إن رأني حتى بدت عليه دهشة ،
فقلت :

إني لا أريد أن أكون نهب عيون الناس !

فهمهم وهو يكتم ابتسامته :

لك حق ... سعادة الحكمدار يقصد إلى الشيخ الطشطوشي

ليعالجه ... ١٩ ...

وخرجت أطلب الطريقَ إلى السيارة ؛ فاعترضت عيني
كومة ملسفة في السواد لا يبدو منها إلا عينان تومضان وميضاً
مضطرباً ... فربتُ كتفها ، وقلت :

كيف الحال يا حاجة ؟

فتمنخت الكومة عن صوت هزيل مرتجف ، يقول :

الحالُ على ما يرأمُ ببركة الشيخ الطشطوشي !

ثم جعلتُ تتمُّ بأدعية وصلوات .

وجاء خيرٌ ، فأخذ بيد زوجته وتبعاني إلى السيارة فصعدنا
فيها جميعاً . وأبت الكومة إلا أن تقنعداً أرضَ السيارة

أمامي ، على حينَ جالسَ زوجها بجوارى متضائلاً منكشاً
في جلبابهِ القشيب ...

وأنبعتَ السيارةُ تطوي الطريقَ ، متجهةً إلى دكفر صقر ،
والكومةُ السوداءُ أمامي صموتٌ تهتزُّ كأنها صرَّةٌ ملنقاةٌ ... !
وكان يقطعُ السكونَ بينَ فيئنةٍ وفينةٍ حديثُ دخير ، في
إطراءِ الشيخِ « الطشطوشي » ، وروايةٍ ما يتناقله الناسُ من
عجائبِ الأفاصيص . فهو صائمُ الدهرِ قنوعٌ لا يطعمُ إلا ما
يمسكُ رمقه ، ولا يدخرُ من قوتٍ ولا مال ، بل يجودُ بما
يتجمعُ لديه من الهدايا والصلواتِ على من يلوذون به من
البائسين وذوى الخصاصه . وهو يعتكفُ ستةَ أيامٍ من الأسبوعِ
في زاويةٍ مغلقةٍ عليه لا يفتحها أحد ، يقومُ فيها الليلَ
متهجداً يصلِّي ويقرأ ويبتهل ، حتى إذا كان يومُ الخميسِ فتحَ
بابَ الزاويةِ لقاصديه وزواره ، وجلسَ إليهم يعالجُ عن شئونهم ،
ويدعو اللهَ لهم ، ويمنحُهم الخيرَ والبركات ...

وكان دخيرٌ ، كأنما أكملَ جانباً من حديثه نظرَ إلى الكومةِ
السوداءِ فإذا بها توميُّ برأسها إيماءةَ التصديق ، وهي في صمتها
مسترسلة ...

وما إن وصلنا إلى دكفر صقر ، حتى أكثرنا حميراً
ثلاثةً أقالتنا تمشي الهويئى مخترةً المروجَ والحقول

في لِيَّاتٍ من الطرُقِ عَسِيرَةٍ .
ومأ زاد من وعشاءِ الطَّرِيقِ وَقَدَةُ القَيْطِ : فقد آذَنَّا
لَفَحَاتِ الشَّمْسِ ...

وكنْتُ في أثناءِ السَّيْرِ أنسرحُ بِفِكْرِي فيما سأصَادِفُه عند
الشَّيخِ مَا يَعْبُدُنِي في أَبْحَاطِ النَفْسِيَةِ الَّتِي شَغَفْتَنِي حَبًّا .
ولاحَتْ لَنَا مَشَارِفُ قَرْيَةٍ ، أَيْ العَرَائِسِ ، فَأَشَارَ « خَيْرٌ » ،
إِلَى مَبْتَى صَغِيرٍ نَاصِعِ البِياضِ تَلْتَفُّ بِهِ شَجَّيرَاتٌ عِجَافٌ . وَقَالَ :
تلك هي الزَّاوِيَةُ ! ...

وَاتَّجَهْنَا صَوْبَهَا ، فَلَبِثْتُ زَرَافَاتٍ مِنَ النَّاسِ بَيْنَ جَالِسٍ
بِالبَابِ ، وَبَيْنَ مُطِيفٍ بِالزَّاوِيَةِ ، وَبَيْنَ مُنْصَرِفٍ عَنْهَا
أَوْ مَقْبِيلٍ عَلَيْهَا ...

وَنَزَلْنَا عَنِ المَطَايَا ، وَخَطَوْنَا إِلَى البَابِ وَنَحْنُ نَفْسُحُ لَنَا
مُنْفَذًا بَيْنَ الجَمْعِ ... وَاسْتَطَعْنَا أَنْ تَنَاجِجَ الزَّاوِيَةَ ، فَإِذَا بِرَحْبَتِهَا
تَزَخَرُ بِالقَصَادِ وَالآتِسَاعِ . هُوَ لاءُ أَشْيَاحٌ يَتَحَامَلُونَ عَلَيَّ
عَكَازَاتِهِمْ فِي مَشَقَّةٍ وَعَنَاءٍ ، وَتلك نِسَاءٌ يَحْمِلْنَ أَطْفَالَهُنَّ
المَازِيلَ فِي تَلْهُفٍ وَحَنُونٍ . وَأولئك ضُرُوبٌ مِنَ النَّاسِ ، هَذَا قَدْ
عَصَبَ بِمَنْدِيلِهِ رَأْسَهُ . وَذلك قَدْ لَفَّ بِالعَصَا ذَرَاعَهُ ، وَهذه
تَسْبِيلٌ عَلَيَّ عَيْنِهَا الرُّمَادُ وَبِزْرِ خَمَارِهَا تَحَاوَلُ شَقَّ طَرِيقِهَا
فَتَنْجَبُطُ ... وَلَمْ يَرُعْنِي فِي ذلكِ كُلِّهِ إِلَّا مَسْحَةَ البِشْرِ وَالْأَمَلَ

تفيضُ بها تلك الوجوه التي قدِمت تلمسُ البُراء من أدواتها ،
أو لتوفى بالتذرعِ جزاء ما لقيت من شفاء .
وكان المكان رطباً شحيح الضوء ، أحسست فيه بردَ
الراحة من لفحات الطريق . وعلى الرغم من تكاثر الناسِ
فيه وأزدحامهم به كانت تغشاهُ سَكينةٌ طيبةٌ وهدوءٌ محبَّبٌ
يبعثان في النفس أمناً وطمأنينةً ، فلم يكن يطرقُ سمعى في
الزاويةِ إلا همهماتٌ يلقى بها بعضٌ إلى بعض في تهيُّبٍ
وخشية ، وإلا دعواتٌ إلى الله أن يمدَّ في عمر الشيخ ويُدِيمَ
على السائلين نفعاته الزاكيات .

وكان « خيرٌ » ، وكومته السوداء يتقدّماني ، فما إن مشينا
بضعَ خُطواتٍ حتى انفرجتُ شُفرةٌ رأيتُ فيها قبراً ظاهراً
برز منه شاهدٌ بعمامة خضراء ؛ وعن كُتب من القبر مصطبةٌ
يترجّع عليها شيخٌ يرتدى البياضَ الناصعَ ، كبيرَ العمامةِ فضفاضٌ
الجبّةِ في يده مسبحةٌ غليظةُ الجبّاتِ تملأ حجراً ... وكان
صبيحَ الوجهِ ، برّاقَ النظراتِ ، تهتدُّ لحيتُهُ الشهباءَ على
صدره في مهابةٍ ووقار ...

وتدانيئاً من مجلسه بخُطاً هينات ، ثم اتخذنا مكاناً على
مقرّبةٍ منه نرتقبُ نوبتنا في الجلوس إليه ... وغمز لي « خيرٌ » ،
بعينه يشيرُ إلى القبر ، وهمسَ في أذني يقولُ :

إنه مثابة الشيخ ... يقضى في غيابه جُلَّ وقته ...
وبقيت لحظة متعجباً أردد النظر بين الشيخ والقبر ... وبعد
قليل وجدتني أركزُ بصرى في وجهِ الشيخ، وأحليلُ التحديقَ
في عينيه ...

وأطرقت أسأَلَ نفسى :

ألى بهاتين العينين سالفُ عهد؟

ثم رفعت بصرى أعاودُ التحديقَ في وجه الشيخ . ووجدتني
أتلقتُ حولى ، فأرى أتباعه قد تعلقتُ نظراتهم بوجهه كأنما
وصلتهم به أسلاك ... وقد كانوا يُرهفون إليه السَّمْعَ فاغرينَ
أفواههم في تطلع واختلاب ، والشيخ يلفظ كلماته رخيةً في
غُنة عذبة وهو ير في مرضاه ويمسحُ على رءوسهم في تحن
وإشفاق ... وبين حين وحين أَلْظُ يده قد امتدت في مسارعة
إلى قاصديه المعوزين يبرهم بالعطايا في صمت وسكون ...
وعدتُ أطلعُ إلى الشيخ أرقبُ نظراته الثواقب ، وامتدَّ
بى التطلع والارتقَابُ ، وشرَدَ ذهنى يتصفحُ سؤالفاً
الذكريات ...

وبغته سمعتُ الشيخَ يقولُ :

تقدّم ... ما عليك بأس ...

وأقبلتُ عليه ، واتخذتُ مجلسى قبالة ... وتلاقتُ نظراتنا ...

ولبثنا وقتاً يرنو كل منا إلى صاحبه صامتاً ... أئمةً اختلاجة
طرأت على قسبات وجه الشيخ ؟ ... وشاهدتُ ابتسامة خفيفة
تعبر فيه ... أهي ابتسامة غامضة يحاولُ بها الشيخ إخفاء
بعض مشاعره ؟

ورجعتُ إلى نفسي أسألتها :

أعلى يقين أنا من أني لم أشهد هذا الوجه قبل ؟
وأبتهني غمزة غمزني بها « خير » ، بشيرٌ إلى أن أتقدم ...
وسمعته يقول للشيخ :

إن صاحبي يشكو قدمته ، وقد جاءك يلتمس الشفاء على يدك ...
ومددتُ للشيخ قدمي ، وأنا أهمهم :

منذُ أعوام سقطتُ عن فرسي بسقطةً ما زلتُ أجدُ ألمها
في قدمي حتى اليوم ...

فدَّ الشيخُ يده ، وتمتم قائلاً :

ستُشفى يا ذن الله ...

ثم شرع في رقيته هادي الملاح في صوته الأغنَّ المعبود ...
وما إن انتهت رقيته حتى قال في نبرات واضحة :

الشفاءُ منك قريب ، والله على كل شيء قدير ...

ثم أسبلَ جفنيه ، وكأنما قد غشيه سبات ... فجذبني « خير » ،

وهو يقول :

ضع تحت منديل الشيخ ما تجود به نفسك ...
فأخرجت قطعة من النقود، ودفعتها تحت ذلك المنديل الأحمر
المبسوط عند قدمي الشيخ ... ونهضت إلى الباب تاركاً وخير،
والكومة السوداء يقضيان مأربهما عند شيخ الزاوية .
وخرجت أتقياً ظل شجرة اجتمع تحتها لقيف من زوار الشيخ
يتحدث بعضهم إلى بعض، جلست قريبا منهم: وبادلتهم تحية بتحية ،
وخضت معهم في الحديث . وجعل كل منهم يروي لرؤفته غرضه
من الزيارة ، وما أصاب على يد الشيخ من بركة وخير .
وسمت نفسي إلى أن أتصرف شأن الشيخ كله ، فرمحت
أسألتهم عن نشأته وحياته ، فانطلق أحدهم يروي حادثاً عجيباً
وقع منذ عشر سنين ، وذلك أنه كان غير بعيد من القرية قبر
متهدم مهجور لولي من أولياء الله اسمه الشيخ الطشعطوشي ،
لم يكن يقصد إلى زيارته إلا نفر قليلون من أهل القرية
وما حولها .

واتفق يوماً أن مرَّ بجانب القبر فلاح مريض تهكته
العيلة ، وكان الإعياء قد بلغ منه مبلغاً ، فأراد أن ينسج لفتح
المهجير وينعم يقسط من الراحة ، فأوى إلى ظل شجرة
خاوية عن كسب من الجذث . وما هي إلا أن سمع حركة
تضطرب في أغوار القبر ، فاتفض مذعوراً وهم بالهرب ،

ولكن تخاذلت قواه ...

وسرعان ما أطلَّ رأسٌ من فوهةِ القبرِ ، فما كاد رى
الفلاح أمامه حنَّ اختفى في مستقره عاتداً فيد الرجلُ المريضُ
مذهولاً ، وأراد أن يستصرخَ فاختنقَ صوته في حلقه ،
وتسمرت قدماه فلم يستطع حراكاً ، ومرت به فترة كان فيها
مأخوذاً ... وسنحت بخاطره أسطورةٌ كان قد سمعها في حدائمه
من عجائز الحسى ، وهى أن الشيخ « الطاشوشى » ، يُبعثُ كلَّ
خمسین سنة مرةً ، وأن من يسعد برؤيته في مبعثه ينال ما
يطمحُ إليه هواه ... فأحسَّ بشيءٍ من الطمأنينة والامن
يسرى في أوصاله ، وتطلع إلى القبر طويلاً ، وبدأت شفتاه
تختلجان بالفاظ مضطربة ...

وأمتدَّ به الوقتُ وهو يغمغمُ ولا يكاد يبين . ولكنه بعد
حينٍ ألقي نفسه يُرسلُ الصيحةَ عاليةً يقول :
يا وليُّ الله يا ملاذی ، فرجِّ بحقِّ المصطفى كرتبى !
ولبتَ ينتظر وعينه لا تفارقان فوهةَ القبر ، وعاد يتضرع
مستنجداً في تذائلٍ وتخاضع ، قائلاً :
بحقِّ المصطفى لا تحيِّبْ رجائى ، أنلنى ما أبتغى ، وأشرقْ
بنورِ طلعتك علىَّ يا قطبِ الأقطابِ !
واندفع في توشلاتٍ متواصلةٍ في حرارةٍ وعمقٍ ، فألقى

القبرَ يضطرب | وما هي إلا أن تهابت فوهته عن وجه
الشيخ ...

وشاع الصمتُ برهةً ، والرجلُ يتطاعُ إلى الشيخِ جاثياً ...
وأخيراً تكلمَ الشيخُ ، فقال :
ماذا تريد مني يا عبدَ الله ؟ ...

فهمهم الرجلُ وقد حسرَ بصره :
أَنْلِي بِرُكَّتِكَ ، وَأُبْرِئِي مِنْ عِلَّتِي ...
فتمتم الشيخُ بكلماتٍ غواصاً ، وقد لَوَّحَ بيده في وجهه
الرجلُ يَمَسَّةً وَيَسْرَةً ، ثم تضاملاً وتراجعاً حتى انطوى خلفَ
الرجام ...

فركتَ الرجلُ وقتاً لا يريمُ ، وكأنه ، ولا يَحِيدُ بصره عن
فوهةِ القبرِ ، وهو يرهفُ بالسمعِ ، ولكن الصمتَ كان قد خيمَ
وشاع ...

وهمَّ الرجلُ بالقيامِ ، فأَنَسَ من نفسه فورةَ قوةٍ ووفرةَ
نشاطٍ ، وإذا به يجدُّ ألمَ العلةِ قد تزايلَ حتى كاد لا يَكُونُ له
أثر ... فهو رولُ نحو القريةِ وقاضِ سره عن حنايا صدره ، فانطلق
يروي ما جرى له في حَمِيَّةٍ وحماسةٍ وإيمانٍ ، حتى لقد ذهبَتْ به
ظنونٌ ساميةٌ كلُّ مذهبٍ ، وحسبوه قد مسَّه خيال ...
ولم تمضْ أيامٌ حتى شاع في القريةِ أن الشيخَ ، الطلشطوشي ،

قد انبعت من قبره وتمثل للناس بشراً حياً ... وتحققت
الأسطورة في مبعث الشيخ كل خمسين سنة مرة ، فلم تتوال أيام
حتى كان القبر مزاراً الأفواج صباح مساء ، والشيخ يخرج لهم
في الفينة بعد الفينة ، يمنحهم البركة ويطلب لهم من الله تحقيق
الرغاب ... وكان بعد ذلك أن أقيم بناء الزاوية حول القبر ،
وأصبح للشيخ مكانة يتناقل الناس أخبارها في القرى ، دانيها
وقاصيها ...

وما كاد محدث الجمع يصل إلى هذا من حديثه ، حتى بدأ
أمامي «خير» وزوجه وهما في نشوة من الإبهاج ، تلمع
أعينهما التماح التفاضل والاستبشار ...
وقصدنا رباط المطايا ، واعتليناها عامدين .

وفما كنا نقطع الطريق كان «خير» مسترسلاً في ثرثرة
مختلطة من الأسئلة والأحاديث لم ألق لها بالا ، إذ كنت في وادٍ
آخر من الأخيلة والتصورات ... حتى وصلنا إلى كفر صقر ، فزلنا
عن المطايا للركب السيارة ، وسألني «خير» وهو منكش في
ركنه ، والكومة السوداء ملقاة تهتز بين قدميه :

ألم تشعر بفائدة يا سيدي ؟

فقلت له عن الفور وأنا تائه النظرات :

حقاً إن شيخك لرجل مبارك ...

فصاح « خير » في إشراق :

ألم أقل لك يا سيدي ؟ ...

ربما كفت زيارة واحدة ، فإن لم تكف فإن زيارة ثانية لا تدع الألم موضعاً ...

ولما بلغنا الدار وأخذت أخلع ملابسى ، تمثلت لعيني صورة الشيخ لا تبرح ... لقد رأيت هذا الوجه لا ريب ... أين ؟ ... متى ؟ ... وهضيت أستذكر ... أممكّن هذا ؟ ... وما كادت تسنح الشبهة في خاطري حتى أقبلت على أوراق القديمة أفتش عن مذكرات كنت أبجل فيها ما يعرض لي في عملي من حوادث ذات شأن ...

واندفعت أقلب الأوراق وأقرأ ، حتى عثرت على ضالتي ، فانكبت أتفحص وأدقق ، واستخرجت إضامة من الصور ، وسبحت عيني بين محتوياتها حتى استقرت على صورة لم ألبث أن اتزعتها من الإضامة ، ورحت أتأمل سجاها في جدٍ وتحقيق ، وأنا أوازن بينها وبين صورة شيخ الزاوية ...

وطال تردادي بين تصفح الأوراق ومطالعة الصورة وعرض

الذكريات وتمثل الشيخ في مجلسه ... ١

وأهضيت أياماً لا يفتر اهتمامي بهذا الأمر ، فرأيت أن أبت

العيون في قرية « أبي العرائس » يستطلعون خبر الشيخ ويسهبون

غوره خفیه . وكذلك أرسلت في طلب بعض ملفات من مديرية
« أسيوط ، خاصة بحادث « العصلوجي » ، أحد المجرمين الذين
اشتبكت معهم في موقعة دامية منذ عشر سنوات ، كان من أثرها
أن اعتلت قدمای .

وسهرت ليالي أراجع الأسانيد وأستمع إلى ما تأنى به العيون
من أبناء شيخ الزاوية ، وكنت كلما تعمقت في البحث قويت
ظنوني ، حتى أوشكت أن تبلغ ذروة اليقين .

وكنت بين آن وآن أسأل نفسي وأنا أستعيد في مخيلى

صورة الشيخ :

أحق أن وجهه اختلج بعض اختلاجات حين وقع

بصره على ؟ ...

وترادفت الأيام ، فإذا بي أتى في هذا الشأن إلى رأى طبى

به نفساً ، وذلك أن ولى الله الشيخ « العثطوشى » ، وطريد العدالة

« العصلوجي » ، اسمان على مسمى واحد !

وكنت أعجب أشدّ العجب كيف تسنى لذلك الجاني الأثيم-

الذى نشر الفرع والرعب حقة مديدة في قرى الصعيد أن

يسخر من عقول الناس ؟ ... وكيف تيسر له أن يفر من موطنه

ويأوى إلى تلك القرية عشر سنوات طوالا دون أن يفتن إليه

أحد ، وقد غدا قد يسأ يتوسط بين الله وعباده ، يدر عليهم الخير

والبركات ؟ ...

وضربت المائدة بيدي ، وقت واقفاً ، وزهو الانتصار
يتلألا في عيني ، وقد امتلأت غبطة بأني على وشك أن أضع يدي
على ذلك الأثيم الذي طالما نشدته في كل مكان ، وبذلت أقصى
مجهودى في هذه السبيل حتى كدت أدركه ، ولكنه أفلت ساخراً
من يدي ، ولاذ بالفرار .

ودبرت الخطة التي أبلغ بها غايتي ...

وفي صبح يوم الخميس أعددت العُدَّة لامرئى ، وخرجتُ
متخفياً في زى شيخ من مشايخ البلاد ... فلقيني بالبواب « خير ،
وقال لي :

بيدولى أنك غادٍ لاستكمال شفائك عند الشيخ ...

فقلت :

الامر كذلك ، وأرجو أن تكون هذه هي المرة التي أحتاجُ

فيها إلى زيارته ... !

— ألا أرافقك ؟

— أفضل أن أذهب وحدى ... لقد عرفت الطريق ياخير ...

وصعدت في السيارة قاصداً « كفر صقر » ، فلما وافيتها ركبت
مطيبة إلى قرية « أنى العرائس » ، فبلغت الزاوية في رونق الضحى ،
وحدثت خطاى نحمو المبنى الأبيض حوله شجيرات العجاف ،

وتَيَسَّنَّتْ عيونى منبئين فى أرجاء البقعة مندسِّينَ فى غَمَّارِ
الزُّوَارِ ... ودنا منى مُلَا حِظِّ الشَّرْطَةِ فى لَبَوسِ التَّنَكَّرِ ، وهو
يهمسُ قائلًا :

كل شىءٍ مَمَعْدٌ ... ثِقَ أنْ غَرِيمَ العَدَالَةِ لَنْ يَجِدَ طَرِيقًا
إلى الخِلاصِ !

فَأَقْبَيْتُ إليه يَبْعُضِ أوامرى ، فَأَنْصَرَفَ عَنى . وَتَحَسَّنْتُ
مَسَدَّسى لِأَتَحَقَّقَ مِنْهُ فى مَسْتَقَرِّهِ ... وَكَانَتِ الزَّائِيَةُ عَلَى
المَأْلُوفِ تَمُوجُ بالمُرِيدِينَ وَالأَتْبَاعِ ، أَفْوَاجُ تَذَهَبُ وَأَفْوَاجُ
تَشُوبُ . فَرَقَّتْ دَاخِلَ الزَّائِيَةِ ، وَاتَّخَذَتْ مَكَانِي خَيْرَ بَعِيدٍ مِنَ
البَابِ أَرْقُبُ الشَّيْخِ دُونَ أَنْ تَقَعَ عَيْنُهُ عَلَيَّ ، وَهُوَ عَلَى مَصْطَبَتِهِ
مِهَيْبُ الطَّلَعِ ، تَحْفُ بِهِ جِلالَةٌ وَوَقَارٌ ، وَأَطْلَتُ التَّحْدِيقَ فِيهِ
أَحْصَى عَلَيْهِ حَرَكَاتِهِ ، وَأَنْفَحَّصُ سَمَاتِهِ ، وَعَجِبْتُ كَيْفَ
اكتَسَبَ ذَلِكَ الإِنْسَانُ الأَثِيمُ هَذَا الطَّابِعَ الرَّائِعَ مِنَ الشُّقَى
وَالوَرَعِ ، وَمَنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ الهَالَةُ مِنَ الخُشُوعِ وَالمُهَابَةِ ؟ ... إِنْى
لَا كَادُ أَنْكِرُ يَقِينِي وَأَكْذَبُ عَيْنِي فِيمَا أَعْرِفُهُ مِنْ شَأْنِ هَذَا
الجَبَّارِ العَنِيدِ الذِّى أَعْيَا رِجالَ الأَمَنِ خَبِيئًا وَشَرًّا ...

لَقَدْ كَانَتِ عيونُ النَّاسِ مُحِيطَةً بِهِ كَأَنَّمَا شُدَّتْ إِلَيْهِ
بأَمْرَاسٍ ، تَسْتَلْهِمُ مِنْهُ الرَّاحَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَلْقَاهُمْ
بِنَظَرَاتِهِ الَّتِي تَشْعُرُ رَحْمَةً وَحَنَانًا ، وَيَعْدِقُ عَلَيْهِمْ أَحَادِيثَهُ الَّتِي

تقطر وداعةً وطيبةً وإخلاصاً ...

هاهو ذا لا يكاد يَمَسُّ بأنامله مكلوماً يثنُّ من فرطِ
آلامه حتى يعودَ ذلك المكلومُ شخصاً تفتَحَتْ الدنيا أمامَ
ناظرِيه في نضرة وإشراق ... وهأنذا كلما تلفتُ حوالى
هالتي دموعُ السرور والإغتياب تفيضُ بها عيونُ الأمهات وهنَّ
يضممن إلى صدورهن فلذاتِ أكبادهنَّ التي نالت من نغفاتِ
الشيخ نعمة الشفاء ...

لقد أحسستُ أن كلَّ قلبٍ في هذه البقعة يخفقُ بالحبِّ
والولاء، ويدينُ بالفضلِ وإسداءِ الجميلِ لذلك الشيخِ الصالحِ الذي
يمثِّلُ الخيرَ المحضَ في صومعته المنعزلة عن عالمِ الشرورِ
والآثامِ ... أفي مَكِنَّةِ أمرىءٍ أن يرتابَ لحظةً في صدقِ
طوية هذا الرجلِ ونقاءِ سريره ١٤

وأزِفَ وقتُ العملِ المُدبِّرِ ... فكان عليٌّ أن أدنوَ من
الشيخ لأحظي منه برؤية تشفى قديمي ، على حين يقفُ ملاحظُ
الشرطة خلفَ الشيخِ فينقضُ عليه وهو يتمم برقيقته حين أرسل
ييدي إشارة خاصة اتفقنا عليها ...

وتقدمتُ بضعَ خُطُواتٍ ، ثم وجدتني أتوقفُ ...
ثم استأنفتُ سيثري ... وكانت خُطُواتي ثِقَالاً وبئدةً ، وكنتُ
أردُّ الطُرفَ حولي تطالعي دائماً تلك الوجوه الآمنة

المطمئنة ، وتلك النغورُ الباسمةُ المستبشرةُ ، وتلك النفوس الوادعة
المستقرّةُ ؛ فإذا بخطاى تزدادُ تأنفلاً ...

والفيتنى بعد فترة قبالة الشيخ ، وهو ينظر إلى فى هدوء ،
وقد ارتسمت على فيه ابتسامة لا تخاو من غموض .
وطالت وقفتى ، وأنا حيرانُ الفكرِ ، مشقتُ الخاطرِ ،
تغالى الشكوك ... ولمحنتُ الملاحظُ يستعجلىنى فى
إنجازِ مهمته .

وسمعتُ الشيخ يقول بنغمته الراقية ذات الغنة العذبة :

تقدم تقدم ...

فشخصتُ إليه بعينى ، وتلاقحتُ نظرنا وقتنا ... ثم أحسست
بنفسى أعضُّ من بصرى ... وسمعته يقول :
تقدم ... شفاؤك مكفولٌ بإذن الله ا
وجلستُ أمامه ، فانطلق يتممُ برقيته ، ويده تأنوح
على قدمى .

ومكثتُ مطرقَ الرأس ، خافضَ البصر ، غريقاً فى أخيلة غريبة
كأننى فى غمرة الأحلام ، أسائلُ نفسى :
كيف يكون حالُ هذه القرية السعيدة بعد أن يرحلَ عنها
وليها الطيب ١٤

وما إن فرغ الشيخ من رقيته ، حتى وجدتنى أخرج

من جيبي قطعة النقود ، وأدسها تحت منديله المبسوط كما فعلت
أول مرة . ونهضت عن مجلسه متخذاً طريقى إلى الباب ...
وما كدت أصل إليه حتى شعرت بيدٍ تجتذبنى ، وإذا بالملاحظ يهمس
في أذنى ملهوف النظرات :

ماذا جرى ؟ ... ماذا جدَّ في الأمر ؟

فقلت له وأنا أنظرُ أمامى نظرات شاردة :

خفف من حدتك ... الأمر يتطلب التريث !

وبدأنا سيرانا ، والملاحظ تضطرب زجرته المكبوتة

على شفتيه ، فسمعته يقول بعد خطوات :

هذا المجزم ! ... هذا المحتمل ! ... كيف نميله ! ؟

فأمسكتُ يده ، وقد قاربنا رباط المطايا ، وقلتُ :

أشعر بأتنا كنا على وشك أن نقع في خطئٍ جسيم ...

— كيف ؟ ... كيف ؟

فضغطتُ يده ، وقلتُ :

سأشرحُ لك الأمر جلياً ...

وفطنت في هذه اللحظة إلى شيء راعنى حتى أذهلنى ...

لنى أسيرُ على قدمى دون أن أجد ذلك الألم الذى لا زمنى

عشر سنوات ... يا لله ! ... كيف فاجأنى هذا الشفاء ! ؟

وأردتُ أن أستوثق ، فجعلتُ أغدو وأروح سريع الحركة ،

أضربُ الأرضَ في مسيرى، فاجدتُ للآلم من أثرٍ...
وكان الملاحظُ ينظرُ إلى حائرٍ يستبد به العجب، فألقيت
يدي على كتفه، وقد تطلقتُ أساريرُ وجهي، وفاضتُ بالبشر
عيناى، وقلتُ له فى احتياج:
انظرُ... لقد نلتُ من بركةِ الشيخ أوفرَ نصيب!

كَلْبُ أُسْعِدْ بَكَ

حينما كنتُ طالباً في مدرسة الزراعة بـ «الجيزة»، كنتُ
أترددُ في أوقات فراغى على قهوة صغيرة بالقرب من الشارع
العالمُ يترامى بجوارها جدولٌ صغيرٌ وتهدل فوقها أغصانُ
شجرة عتيقة، وكنتُ أعدُّها حلقة الاتصال بين الحضر
والريف، أو بين المدينة المزخرفة والحياة الفطرية .
فبينما تكونُ جالساً في مقعدك الساذج تشربُ القهوة
في هدوء وتصغى إلى خرير الماء، وتتملى منظر النبات، إذ يصطدمُ
سمعك بدوى ترام، أو يُفغمُ أنفك بدخان سيارة .
وكان يترددُ على هذه القهوة رجلٌ كبيرُ الجسم كُروى
الوجه بأنف أفطس وعينين صغيرتين، وكنتُ ألاحظ عليه
مظاهر البؤس، فاعتقدت أنه من ذوى المعاش الفقراء، وأذكرُ
أننى ما ذهبت مرةً إلى القهوة إلا وجدته . أراه دائماً في ركنه
المعهود بجوار الباب منتفخاً في جلسته، يرسل على كتفيه شملة
بالية، بين يديه القهوة يشربها والنارجيلة يدخنُها، ولا يفتأ

يصبح في الفترة بعد الفترة بالخادم يصدرُ إليه أو امره . وكان لا يُرعى إلا مصطحباً كلباً أسود بشع الهيئة من فصيلة الأرمنت ، يزجج القهوة بنياحه الثقيل ، وكان سيده يبالغ في تدليله والاعتناء به ، ويخاطبه ببعض كلمات إنجليزية بلهجة سقيمة لا تتعدى قوله : « كام هير جيمي . كام هير ماى دير ... » (١) ،

وكان يلزم غلام القهوة ، أن يحضّر للكلب الماء في صحفة من الصّحاف النظيفة ، ويجمّع هو بنفسه بقايا الطعام مما يأكل رواد القهوة ، ويقدمها لحيوانه غير مبالٍ باشمزاز الناس وامتعاض صاحب القهوة .

وذهبت مرة إلى القهوة فوجدت « عويس » ماسح الأحذية يتشاحن معه ، وكان الرجل يشتم الغلام بصوته العريض الوقح ، وهو منتفخ الأوداج محمّر العينين يبصق أمامه بصنقات متوالية . ورأيت الكلب ينبح الغلام بشدة ، ويجذب أطراف رذاته بأسنانه ، فتلافت التداخل بينهما ، وقصدت إلى مكاني بجوار الجدول ومعى كتاب الزراعة المصرية لاذاكر فيه .

وجاء صاحب القهوة فتحسّم الخلاف وأنحى على « عويس »

(١) تال هنا يا جيمي . تال هنا باعزى !

وأرضى الأفندي ببعض كلمات لا تخلو من تملق ، وترك الكلب
ثوبَ الغلام ، وذهب إلى سيِّده ، فنظر إليه ملياً وهو يهز له ذنبه
ثم تمدَّد تحت قدميه ونام .

وجاءني « عويس » حاملاً صندوقه على مألوف عادته ،
فحدثت له قدامي في غير وعني . واشتغل الغلام بالمسح ،
وأنا غارق في التفكير . وبعد برهة خاطبت « عويس » ووجهي
لا يفارق الكتاب :

من يكون ؟

فأجبنى وهو منهمك في عمله :

طبيبٌ لا هنا ولا هناك ، يدعى أنه كان رئيس الأطباء
في الجيش في الزمن الماضي ...
— والآن ؟

— على المعاش ... تصوّر يابك أنه يريد أن يُعطيني نصف
قرش نظير مسح حدائه ووضع رباطٍ جديد له . وأى حذاء هذا
الذي أمسحه؟ ... لا أراك الله ، أوكدُ لك أن الطلاء لم يمسه
منذ أن كان جنابه في الجيش !

ولا حظتُ على الرجل أنه يُسارق النظرَ إليّ
شزراً ...

فأردتُ أن أحولَ مجرى الحديثِ ولكنني لم أستطع ،

إذ كان دعويس، قد اندفع يقول :

نصف قرش واحد نظير مسحة ورباط جديد؟ .. يُغنيني
اللهُ ياسيدى! ... هذا فوقَ الخدَماتِ التي أُودِيها له دونَ
مقابل . ولو كان شخصاً فقيراً لقلنا نخدمه لوجهه الله ، ولكنه
رجل كَانِزٌ ... كَانِزٌ بلا شك ...

وسمعتُ الرجلَ يبصقُ بشدةٍ على الأرضِ ، نجفَ دعويس ،

من حديثه وهمس قائلاً :

صدق بالله إنك لو ذهبتَ إلى بيته لظننتَ نفسك في مزبلةٍ
أو حظيرةٍ مهائم ... لم كلُّ هذا والدنيا آخرتها موت ؟ ... إذا لم يمتع
الإنسان نفسه في دنياه فما فائدةُ جمعه للبال ؟! ... دعنا ياسيدى
ولنُخلِقْ بابَ هذه السيرة ... !

* * *

وانقطعتُ عن القهوة بضعةَ أيام ، وبيننا كنتُ مرةً في
الترامِ مُهمِكاً في قراءةِ «المُصور» ، إذ شعرتُ بشخصٍ
يدخلُ العربةَ - وكانت مزديجةً بالركاب - ويحشرُ
نفسه بين الجالسين ، وسمعتُ مُهممةً استنياه في كلِّ ناحية .
ورفعتُ رأسي لأرى مَنْ الداخِل ، فوقع بصري أولَ وهلةٍ
على كلبٍ أسودٍ ضخمٍ يشع الهيئةَ عرفته على الأثر ، ورأيتُ
أمام مقعدى رئيسَ الأطباءِ يمسحُ وجهه المحترقَ المعقَّد ،

ويجذبُ الشملة هلى كئيفيه ، ويدفع جاره وهو يتعمّنهم
ويبرطمُ ، وتلاقَتُ أعيننا ، وشعرتُ بأننى أبتدسِم له .
وشاهدته يُحييني مجاملةً بابتسامَةٍ عاطفة . وبعد لحظاتٍ
قال لى مندفعاً :

يدفع الواحدُ منا ستةَ ملياتٍ لهذه الشركة الملعونة ليخظى
بمثل هذه الجلسة المرهقة . أ آدميُّون نحن أم بهائم ؟ ... أهكذا
يخشروننا كأننا فى عربّة حيوانات ؟ ... لماذا لا يزيدون عربّةً
على كلِّ قطارٍ فى مثل هذه الأوقات ؟ ... أقسم بالله إن سوارس ،
الذى كنا ندفع فيه ثلاثةَ ملياتٍ أحسنُ ألفَ مرةٍ من
هذا الترام !

فواقفته ، وأخذتُ أنعى على الشركة هذا الإهمال ، فظهر
على وجهه الارْتياح ، وانطلقَ يناقلى الحديث بلهجة ودّية
بلا تكلف ، كأنه يعرّفنى منذ أعوام ، وقال :

لم تحضروا إلى القهوة منذ أيام ؟ ...

- كنت مشغولاً جداً ... لقد كُبت علينا الدروس .

- والله يابنى لو كنت معنا فى الجيش لاستصغرتُ شأن

ما يشغلك ... كنت لا أجد الوقت الكافى لآتناوكل كوب

اللبن فى الصباح !

- أخذتُ فى الجيش مدة طويلة ؟

فأجاب بلهجة متزنة ، وهو يعيث بسلسلة ساعته :
خدمت خمساً وأربعين سنة... خمساً وأربعين سنة ، وأنا
أعيش في الخيام وعلى سهوات الجياد ، أضمد الجرحى وأغنى
بالمصابين ، ثم أخرج بعد هذه الخدمة الطويلة العريضة الشاقّة
ماش لا هو في الدير ولا في النّفير... لا مكافأة ولا جزاء !
ثم مالَ علىّ وهو يتسم وقال :

ألم تسمع المثلَ القائل : آخرُ خدمة الغزاة علقته ؟
وكان قد خلا مكانَ بجواره ، فنظر إلى كلبه القابع تحت
قدميه ، وقال له وهو يفرقعُ إصبعه :

كلم هير جيمي ، كلم هير ماى دير !
وأشار له إلى المحلّ الخالى ، فهض الكلب ، وبعد أن تمطى
وتتاببَ في هيئة شنيعة قفزَ بجوار سيده والناسُ ترمقه بنظرات
غضبي . والتفتُ إلى طيّب الجيش وقال وهو يلاطفُ
كلبه :

لم أرَ في حياتي كلباً وقيّاً كـ «جيمي» ، هذا... إنه إنسانٌ وليس
بحيوان . لقد استعصتَ به عن البنين ؛ فهو ابني ، وعن الخدم ؛
فهو تابعي الأمين ، وعن الحرّاس ؛ فهو حارسى الذى يبدّل دمه
في سبيلي . أتصدّق أنّى لا أعاشرُ في منزلى سواه... ١٩
ثم نظر إلى كلبه وقال :

أوه جيمي أى لاف يوفرى ماتش^{١١}
وكان بجواره شيخ معممٌ مستغرقٌ في تسبيحه ، فأحسَّ
جسم الحيوان يلسن جَبَّتَه ، فاستيقظَ في رَعْدَةٍ ، والتفتَ من
فورهِ ، فما إن وقع بصره على الكلبِ حتى وثبَ غاضباً يلعنُ
ويشُبُّ ، وتناول عصاه فدفع بها الكلبَ يريدُ أن يرغمه على
تركِ المكان ، فرماه دأسعد بك ، بنظرةٍ ملتهبةٍ وقال : وقد
احتقنَ وجهه وانتفخَ :

ماذا تريد من الكلبِ ؟

— يجب أن تنزله عن المقعد !

— أنزله عن المقعد .. ١٤

— إن مكانه ليس هنا ...

— ومن حضرتك حتى تلقى هذه الأوامرَ على الناسِ ١٤

— الكلبُ نجسٌ ، وأنا رجلٌ متدينٌ ، فيجب إزاله ...

— لقد دفعت ستةَ ملياتٍ لأركبَ أنا وكلبي ، فلا يستطيعُ

أحدُ إزاله .

— إذن أنا أتولى ذلك !

ورفع الشيخُ عصاه يريد أن يهوى بها على الكلب ، فأسرعَ

« أسعد بك ، ونزعها منه ، ثم أتى بها في الطريق والترام سائر ، وسرعان ما رأينا الرجلين قد اشتبكا في مشاجرة اشترك الكلب فيها : فانطلق يعرض قدم الشيخ ويمزق جبته ، وتألب الركاب معى على الرجلين نحاول التفريق بينهما ... ثم وقف الترام ومضى عامل التذاكر يستدعى الشرطى ... »

* * *

وتواصلت الأيام : وكثرت ملاقاتى لـ « أسعد بك » في القهوة . وتوثقت بينى وبينه وشائج الصداقة . واتضح لى أنه شخص غير مضايق كما توهمت من قبل ، فكان إذا رأتى فى ركنى المعهود ، مكباً على كتاب إذا كرت درسى ، احترام عملى ولم يفتح فى بكلمة معى . أما إذا لاحظت أنى لا عمل لى دعانى للجلوس معه ولا أذكر أنه أكرمنى بقدمح قهوة أو تقدم لى لفاقة واحدة . أما حديثه فكان على سخافته مسلياً . معظمه حكايات عن حياته الماضية فى الجيش ، ونوادر عن كلبه لا تخلو طبعاً من مبالغات ومغالطات . وكان إذا بدأ حديث الكلب لمعت عيناه بوميض غريب ، وخيل لك أنه يتكلم عن ابن وحيد له قد وهبه موفور محبته وحنانه ا

* * *

وتخلفت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت إليها ، فكان أول

شيء لاحظته هو أن «أسعد بك» غير موحود ، ولما جاءني
الخدمُ بالقهوة سألتُه عنه فلم يُفِدني بشيء . وبعد قليل ظهر
«عويس» ما سح الأحذية ، وكان مسروراً يَضْرِبُ صُنْدُوقَهُ
الخشبي ، فسألته :

ما الخبر ؟

- خبرٌ عظيمٌ جداً ... أخذوا كلب أسعد بك في عربية

الكلاب ...

- يا شيخ ... !

- شاهدتُ ذلك بعيني رأسي !

ونالني شيء من الأسف ، ولكنني لم أُعِرِ الأمرَ كبيرَ
اهتمام . واعتقدتُ أنني سأرسي في غدِ صديقٍ وكتبه يَحْتَلَانِ
ركنهما المختار .

وبعد فترة انقطاع ذهبتُ إلى القهوة ، فوجدتُ «أسعد بك»
ودرتُ بعيني أبحثُ عن الكلب فلم أجده . وكانت عينا صديقي
مربدتين حائرتين ، ووجهه محتقناً . وحيثه فرد علي في اقتضابٍ
وصمت ، فلم أشأ أن أتقل عليه : وقصدتُ إلى مكاني وفتحتُ
كتابي وبدأتُ دراستي . ولكنني ما كدتُ أفعل حتى سمعته
يتكلم في لهجة شرسة : كأنه يتحدثني إنساناً أماه ، قائلاً :

ياخذون الكلب ويطلبون مني جنبها نظير إطلاق سراحي ...

جنيتها؟... هذا احتيال .. هذا نهب ... ما أسوأ هذه المصلحة ...
وبصق بصقة كبيرة ، ثم أتمّ كلامه :
... مع أني أفهمهم أني طيب ... بل رئيسُ أطباء الفرقة
التاسعة التي قهرت العصاة في الأبيض ودارفور ... رجلٌ
مقامي معروف ، وماضي مفعمٌ بجلال الأعمال ... مصلحة رديئة
لا تعرف أصحاب المقامات ... بعداً لها !
وأرسل بصقةً أخرى . وكان يتكلم دون أن يلتفت
ناحيتي ...

واكنى كنت متأكداً أن الكلام مُوجّه إلى ؛ إذ لم يكن
في القهوة سوانا . فرأيتُ من بابِ الجمالة أن أعيرَ حديثه
اهتمامي ، وقلت :

جميع المصالح مختلفة ...

فاحتدّ في كلامه وهو ينظر أمامه دائماً ، وقال :

إلاّ هذه المصلحة ... إنها ليست مختلفة فقط . إنها غير موجودة .
أصدق أنهم يرفضون شهادتي الرسمية بأن جيمي غيرُ مسعور ، وأنه
ليس من السكّاب الضالّة ، ويقولون إن الإجراءات يجب أن
تأخذ مجراها ؟ ... إجراءات ؟ سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه
الإجراءات معنى ومع كلبي .. سأريهم ..
و ضرب بشدّة على المائدة ، والتفت إلى هذه المرة وعيناه

ترميان بالشرر، وقال :
لقد أرسلتُ إلى وزير الحربية اليوم عريضة لإخلاء سبيلِ
كلبي في الحال ...
فأجبتُه على الأثر :
حسناً فعلتِ ! ...

. * * *

وفي غدٍ سافرت مع لفيف من طلبة المدرسة في رحلة إلى
الصعيد، وقضينا هنالك أسبوعاً كاملاً تنتقل بين ربوعه متفرجين
نرى آثاره العظيمة .

وفي اليوم التالي لعودتي إلى القاهرة . قصدتُ إلى قهوق
المعروفة ، فرأيتُ « عويس » جالساً القُرْفِصَاءَ على الأرض
بجوار إحدى الموائد وأمامه صندوقه ينتظر الرواد . فتأديتُه
وسألتهُ على الفور :

ماذا جرى لـكلبِ أسعد بك ؟

فأبسمَ وقال :

تعيشُ أنتِ !

— قتلوه ؟

— منذ أربعة أيام !

— ألم يدفعَ أسعد بك المبلغ ؟

— يدفع المبلغ ١٤٠٠٠... إنه يرضى أن يعطيهم عينيه ولا يرضى
أن يدفع لهم الجنيته ا
وشاهدت « أسعد بك ، آنياً يتوَكَّأ على عصا غليظة ،
ويسير في ثقل وإعياء ، ولما اقترب مني ابتسم لي ابتسامة
ضئيلة ثم جلس ...
ولاحظت على وجهه شحوباً وامتقاعاً ؛ كأنه قريب العهد
بمرَضٍ خبيث ، وأشار إلى المقعد الذي أمامه وقال :
تفضل ... اجلس ا

وجلست ، وبدأنا نتحدث في أمورٍ تافهة . وكانت لهجته
فاترةً ، ونظراته فيها بعض الشرود . ولم ينطق بكلمة
واحدة عن « جيمي » ، فعلتُ أنه لا يريد الخوض في هذا
الموضوع .

ثم خيم علينا صمتٌ ثقيلٌ فاستأذنتُ وانسكفتُ إلى
رُكني ...

ومنذ ذلك الحين اختلفتُ مواعيدُ « أسعد بك » ، ولم أعُد
أراه دائماً في القهوة كلما ذهبتُ ، وغير عاداته في طلب القهوة
السوداء التي كان لا يحد عنها ولا يزيد عليها ، واستبدلَ
بها بضع كسوس من العرقي ، وكان كلما حميت الصهباء
في رأسه اندفع يتكلم في إسهابٍ مُمِضٍ وبصوت مرتفع

كَانَهُ يَصْرُخُ أَوْ يَشْتُمُ ، وَكَانَتْ مَوْضُوعَاتُهُ دَائِمًا لَا تَخْرُجُ
عَنْ سَبِّهِ مَصْلِحَةً الطَّبُّ البِيطْرِيُّ وَسَبُّ الْعَالَمِ كُلِّهِ مَعَهَا ،
وَكَانَ يَقُولُ دَائِمًا : الدُّنْيَا كُلُّهَا نَهَبٌ فِي نَهَبٍ ا
وَبَدَأَ يَدْعُونِي إِلَى شُرْبِ الزَّيْبِ مَعَهُ ، وَيَقُولُ لِي :
لَا تَخْشَ ضَرَرًا ، أَنَا طَيِّبٌ ، إِنَّ الزَّيْبَ مُقْسُوٌّ لِلدَّمِ
وَمَثِيرٌ لِلشَّهِيَةِ ... أَحْسَنُ الشَّرَابِ كُلَّهُ .

وَأَصْبَحَ مَجْلِسُ دَأْسَعِدِ بَكَ ، لَا يُطَاقُ ، فَلَمْ أَكُنْ أَنْعَمُ
مَعَهُ بِتِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْعِذَابِ الَّتِي كُنْتُ أَجِدُ فِيهَا سَلَوَتِي . وَلَمْ
يَكُنْ يَنْزُكُنِي إِذَا كُرْتُ دَرُوسِي فِي هَسَدِهِ ، بَلْ كَانَ دَائِمًا يَقْلِقُنِي
بِصَخْبِهِ الْمَرْعِيجِ وَيَضْطَرُّنِي إِلَى الْإِنْصَاتِ لَهُ وَتَحْيِيدِ كَلَامِهِ . وَكَانَ إِذَا
رَأَى مَقْصَرًا فِي الْإِنْفَاتِ إِلَيْهِ جَاءَ إِلَى مَائِدَتِي وَنَقَلَ شَرَابَهُ عَلَيْهِ ،
وَاحْتَلَّ ، قَعْدًا بِجَوَارِي ، وَبَدَأَ يَصُبُّ سَيْلَ شِكَايَاتِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ
وَشَتَائِمِهِ لِلنَّاسِ .

وَحَدَّثَ مَرَّةً أَنَّ جَاءَهُ صَاحِبُ الْقَهْوَةِ بِحِسَابِ الشَّهْرِ -
وَكَانَ مِنْ عَادَةِ دَأْسَعِدِ بَكَ ، أَنْ يَدْفَعَ الْحِسَابَ جَمْلَةً فِي رَأْسِ كُلِّ
شَهْرٍ - فَأَخَذَ الْوَرَقَةَ مِنْ يَدِ الرَّجُلِ ، وَأَلْقَى عَلَيْهَا نَظْرَةً عَابِسَةً ،
ثُمَّ صَاحَ فِي وَجْهِهِ :

اذهب من أمامي ، ان أذفع شيئاً ، كلُّكم لاصوص
صَعَالِكُ ...

فاحمرّت عينا صاحب القهوة ، وقال له :
الصوص والصعاليك هم الذين لا يدفعون ما عليهم !
- اخرس ١ . . . أتعرف من الذى تكلمه ؟ ... أنا
أسعد بك الذى كان كبيراً أطباء الفرقة التاسعة فى الجيش
المصرى ١

- وماذا بهم ؟ ... أنا أريد تقودى : ليس هذا الجنيهُ جنيه
مصلحة الطب البيطرى الذى لم تدفعه إنقاذاً لكلك . هذا جنيه
من طلبات شربتها من على !
ورأيت سحنة وأسعد بك ، قد انقلبت فأصبحت كسحنة
النمر الهائج وقال وصوته يرتجف :
ماذا تقول يا وقح ؟ ... جنيه الطب البيطرى ؟ ...
جنيه الكلب ؟ ... أتظن أتى بخلت بالجنيه فى سبيل إنقاذ
كلبي ؟ .. أتجرؤ على هذا القول بالعين ؟ ... أنا أرى أن أدفع
مائة جنيه لاجنبياً واحداً من أجله ، ولكنى لا أدفع ملياً ،
نكايَةً فى المصلحة !

ورأيتُه يدسُ يده المرتجفة فى جيبه ، ويخرج ورقة مالية
ذات مائة قرش ، وينهال عليها تمزيقاً ، ويقول :
أستطيع أن تقول إنه ليس فى مقدورى أن أدفع جنياً ١ ؟
ثم قام وأنشَبَ أظفاره فى رقبة الرجل ، وقامت بين كليهما

معركة استدعى من أجلها رجال الشرطة ... ١

* * *

وساءت أحوال د أسعد بك ، ... فلم أعذ أراه إلا مخوراً
رثاً الهيمته ممزق الشياب قوى الشبه بالمشركين من مدمتى
المخدرات الذين نراهم في الطريق يستجدون المارة ، وكان لسانه
لا يسكت عن حديث النقود ، وبخاصة الجنيه الذى لم يدفعه
إنقاذاً لكلبه ، وكان يؤكّدلى فى حماس غريب أنه لم يدفع
هذا الجنيه نكايَةً فى مصلحة الطب البيطرى ، وليفهمهم
أنه ليس مغفلاً . وكان يروى الحكاية لكل من يقع عليه
بصره فى القهوة أرن فى الطريق ، وهو يهدّد ويشتم ، وإذا لم
يجد من يكلمه راح يحدث نفسه محتدداً وهو يلوح بيده
بمحركات شاذة .

وانقلب من شحج متكالب على المال إلى مشرف
متلاف ، يُنفق ذات اليمين وذات الشمال ، وسمعت أنه كثيراً
ما يذهب إلى مصلحة الطب البيطرى ليطعم الكلاب الضالة ،
ويخرج لها رخصاً بمبالغ لا يستهان بها . وكان يحرص دائماً
على التبذير ، ويقول :

أنفق ما معك ، وابسط نفسك ... دنيا لا تستحق
الإهتمام ... ١

وحلّت الإجازة السنوية ، وانقطعتُ عن زيارةِ القهوةِ
ثلاثة أشهر كاملة ، ولما عدت إليها رأيت كلَّ شيءٍ فيها
لم يتغيّر ، وكانت منضدتي المختارة في موضعها بجوارِ الجدولِ
تظللها أفنان الشجرة العتيقة ، فكأنني لم أفارقها إلا منذ
ثلاثة أيام . . . واستقبلتني الوجوه التي أعرفها كل ؛ بابتسامته
الخاصة .

والفت حولي وأنا مشرق الوجه ، أتصفّح
الذكريات ...

وبغته أظلمت نفسي غمامةً . وقلت على الفور لـ « عويس ،
الذي كان يمسح مقعدى في ضجة وسرور ، ويهيج أدواته
لمسح خدائي :
أين أسعد بك ؟

فتوقّف عن عمله ، ورفع بصره إلىّ ، وقد غاضت
ابتسامته وانقطع ضجيجُه ، وقال بلهجة حزينّة موحشة :
ألم تسمع عنه شيئاً ؟
— كلاً ... ١

— لقد أرسلوه إلى المارستان ، كانت حالته في المدة الأخيرة
عبرة . وكنت أنا الذي أعطيتني به ... ١
— ما هذا الكلام ؟

— الحقيقة ما أرويه لك ...

— وهل يمكنني أن أزوره في المارستان ؟

فَمَدَّ عَوِيسَ ، صَنْدُوقَهُ تَحْتَ قَدَمِي ، وَبَدَأَ يَمْسَحُ
مَتْبَاطِنًا ، وَقَالَ فِي لَهْجَةِ اسْتِسْلَامٍ :
كَلَّا يَا سَيِّدِي ... لَنْ تَرَاهُ ... !
وَنَكَّسَ رَأْسَهُ ... فَنَكَّسْتُ رَأْسِي ، وَقَدْ فَطَّيْتُ
إِلَى مَارِي إِلَيْهِ ...

قبلة الساق

— يا وُلد يا عبده ... يا عبده الكلب .. يا ملعون ...

يا تجسس !

كانت هذه التَّداءاتُ تُصافِحُ أذنَّ عبده السَّمَّتان ، وهو ممتدِّدٌ على الدَّكَّةِ الخشبيَّةِ المحطَّمةِ في حجرتِه القائمةِ بجوارِ البابِ ؛ كأنَّها لضيقها وحَقارَتِها كَنَّتْ من أكنانِ الدَّجَاجِ ... وكانت الساعةُ لم تَكُنْ تبلغُ السادسةَ صباحاً . ظلَّتْ هذه التَّداءاتُ تُدَاعِبُ أذنه وهو في حالةٍ بين اليقظة والنوم ، فكانت تصلُ إلى موطنِ السمِّ من رأسِه ؛ كأنَّها حديثٌ تَلفونيُّ آتٍ من بعيد ، تطغى عليه ضجَّةُ صاخبةٍ . فيحسبُ نفسه يكلمُ أحدَ رُوَّادِ الملهى الذى يَعمَلُ فيه ، وكانت عَضَلاتُ وجهه تنقلِّصُ وتختلجُ ، وشفته تَضطربان بغمغمةٍ غامضةٍ ، إذ كان يَشعُرُ في حالتيه تلكَ بأنه هو الذى يصبُّ جامَ غضبهِ بذلك الشَّمِّ والسَّبَابِ .

وُسُرَّعَانِ ما انقلبَ ذلكَ الحديثُ التَلفونيُّ في حُلُمِهِ معركةَ حاميةِ الوَطيسِ في فِناءِ المَلهى . فرأى نفسه يصرِّعُ المِديرَ

بأسكنة عنيفة . و يحتطف إحدى غيد الملهي المدآته بحبه ..
وفي أثناء تلك الرؤيا المضطربة كان يترأى له بلا رابطة
ولا تمهيد بين فترة وفترة وجه عبوس ذو ملاح ثائرة . ذلك
وجه الحاجة فاطمة ، صاحبة المنزل الذي يحتل فيه
حُجْرَة البواب .

وازداد الصخب في قوة وعنف ، فاهتز جسم عبده
السّهتان ، اهتزازاً شديداً ، وأخذ جفنتاه يتحرّكان ، ونهض
برأسه وتبدأ يتلفت حوله . فقطن إلى مكانه من الحجرة
يحتل دكنه المحطمة ... وراح يمسح عن وجهه العرق يكم
قبائه الأبيض — لبوس العمل في المهني — ورن النداء في
هذه اللحظة ، فالنّى نفسه يعتدل في دكنه سريعاً ويحجب
بصوت مُتَحَشِّج :

حاضر ...

— يا ولد يا عبده ... يا كلب .. يا غبي .. يا وخيم ...

يا نجيس !

— حاضر ... حاضر ...

وقذف بأخر تشاربة من فيه ، وخالع آخر تمطية
من كتفيه ، ونهض مهرولاً بجسمه النحيل الضئيل ، وقامته
القصيرة إلى مسكن الحاجة فاطمة ، المُقابل للحجرتة ، ولم

ينسَ أن يطَجَّ على فهِ ابتسامةً كريمةً ، وصاح :

صباحُ الخيرِ يا سَتِي الحاجة

ووقف على قِيدِ خَطْوَتَيْنِ من الباب . فهو يعرف مكانه
لا يتعداه ، فليس له أن يَبْلُغَ البابَ أو أن يَمَسَّ عينيه إلى
ما وراءه ... ولاح له ، من جانب الباب طيفٌ « الحاجة فاطمة ،
وهي مرتديةُ البياضِ على مألوفِ عاديها ، ملتئمةٌ بالخمارِ
الأيضِ ينسبط على صدرها حتى يغطي يديها ، وسمعتها تقول :
أين كنتِ يا نجس ؟

ومد يده ليحييها في غير وعي ، ثم ما عَمَّ أن ردها إلى جنبه .
إنه منذ التحق بالبيت شبه بواب ، لم يحدث أن لمست يده يدها
الملففة أبدأ في الخمارِ الأبيض خلال السنوات الخمس التي قضتها
في خدمة البيت ، واطلما سمعتها تقول :

تنح عني ... حاذرٌ أن تنقض وضوئي !

ولما برزت له من جانب الباب سأها :

أية خدمة تبغين يا سَتِي الحاجة ؟

.. ألا تعرف عملي يا نجس ؟

وكان على الرغم من تكرار كلمة « نجس » على سمعته ،
واعتياده أن يتلقاها من « الحاجة فاطمة » ، لا يستطيع لها احتمالاً ،
بل يشعر بأنها ثقيلة الوطأة على نفسه ، فوقف يجمجم :

يا فتاح يا عليم ... كل يوم نجيس ... نجس ا
- وهل أنت إلا كلب نجس؟ ... ما صنعتك؟ ... ألسنت
خادم مرقص ، لوث؟ ... خادم موبقات؟ خادم .. خمر وتهتك؟ ...
تقضي أكثر ليالك ساهراً غريقاً في تلك البؤرة ، فلا تصحون من
نومك إلا بمحركه ...

فرغ صوته قليلاً ، وهو يتحدث أمامه تحديقاً تائهاً ، وقال :
يا ستى ... هذا نصيبى ... هذا مقسوم لى .. نجس ...
قدر ... إن كان هذا يرؤوك فأنأ فى خدمتك وإلا فآتر كينى
وشأنى ا

وكان مثل هذا الموقف على شدته ، وما يتوقع أن ينجم
عنه من حدوث كارثة فاصلة ، ينتهى دائماً إلى رضاً ووفاق ...
فترات صمت ... تراجع من الجانبين ... كلمات عتب ومؤاخذه
رفيقة ... تبادل ابتسامات متكلفة ...

وإنما كان ينتهى الموقف إلى هذه النتيجة المسالمة ، لأن كلا
منهما يجد نفسه لا غناء له عن صاحبه ...

كان « عبده السهتان ، الموظف اللبلى بلمبى » نزهة الأرواح ،
يقضى أكبر نهاره شبه بواب فى منزل والحاجة فاطمة ،
راضياً عن هذا العمل بما يصيب من بقايا الطعام ، « من
المعالطات فى حساب ما يشتريه لصاحبة المنزل ، وبما تعطيه

إياه « الحاجة » ، من أجرٍ شهري . فأما حاجتها إليه فلأنه حلقة الاتصال بينها وبين العالم الدنيوي ، لا تستطيع قضاء شيء بدونه . فهي مقيمةٌ وحدها معتزلة الناس لا تزور ولا تزار ، ولا تبارح عتبة الدار إلا مرةً واحدةً في العام ، تنتقل فيها إلى القطار في طريقها إلى حج بيت الله الحرام ... فأما عَمَلُهَا في ليل أو نهار فهو الصيام والقيام والتعبّد بالتلاوة والتسبيح ، لا تقناً ذاهبةً آيةً بين مكان الرضوء وبجادة الصلاة ... وكلُّ ما يشعر الجيران بوجودها هو قنقعة القبّاب وحدها حين تذهب أو تتوب . وليس يعلم أحدٌ ماذا يدور في مسكنها وعلى أيّ نحو يكون ، حتى إن عبده السهّان ، أقرب المقرّبين إليها لا يستطيع أن يعرف من دخائل هذا المسكن كثيراً أو قليلاً ... وقد أشرفت « الحاجة فاطمة » على السّنين ، تملّ بشرتها إلى البياض ، مكشّرة الجسم ، تسير ممتدة الخطا كأنها تنخطّر ، وهي تنفق على نفسها من كراء منزلها العتيق الذي تحتلُّ منه الطبقة الأولى .

ومدّت « الحاجة فاطمة » سَفَطاً إلى عبده السهّان ، فتناولته في حذّز . ووجدت في قاعه قطعاً من النقود ، ووقف يتلقّى مطالب السيدة من الشوق ، ونصائحها له أن يكون بصيراً يقطعاً لا يتغفّلها ولا يدعّ الباعة تنغفله ...

وخرج الرجل يحمل السّفط في يمينه ، وسار متباطيءً

الخطو والضيق أخذ منه كل ما أخذ . واستقبل الشارع فما إن صادفه عمودٌ من أعمدة المصابيح حتى وجد نفسه يستند إليه ويلبتي السّفط بجواره مُرخياً لأفكاره العنان... أخليقٌ هو بأن تطلق عليه « الحاجة فاطمة ، لقب النّجس ؟ ... الحق أنه خادم وضيع في مآلهى غير مشرف تعرّض فيه ألوانٌ من الفنّ الرخيص الرقص والغناء المتذل ، تنطوى على تهتك وإزراء بالفضيلة ... ما عمله على وجه التخصيص ؟ ... إنه لا يستطيع له تحديداً ، فلا هو عامل مخصص للتلفون ، ولا هو غلام مقصف ، ولا هو أحد عمّال المسرح ... إنه لمفروض عليه أن يشترك في كل شيء ، ولكنه في الواقع لا يعمل شيئاً مذكوراً . تارة تطلب إليه إحدى الغيد أن يستدعى لها سيارة ، ومرة يرغب إليه أحد رواد الملهى في شراء علبة من لغائف التبغ . وآناً يكلفه مدير الملهى نقل المقاعد وترتيبها على نحوٍ مرسوم ؛ وهو مع كل هذا سفير الغرام بين المحبّين ، يتنقل بين الموائد حاملاً رسائل شفوية أو تحريرية تتضمّن أنباء المواعيد وتباريح الاشواق ... وطوراً يجد نفسه قد اندس في مشاجرة ينصر فته على فته دون أن يدرك لماذا يناصر أو يعادى ؟ ... وطالما خرج من هذه المشاجرات مشنّجوج الرأس داميه ... إنه يعيش منذ أعوام في هذا الملهى الممطر دائماً بأريج المرأة الفواح ،

الحافل دائماً بطيفها الألاء ، المتجاوب أبداً بصوتها ضاحكاً أو شاديةً أو عابثةً ، المهتزُّ أبداً بحركاتها لاعبةً أو رانصةً أو متبخرةً . . .

وتحايلت على وجهه ابتسامة بلهاء ، وهو في وقتفه بجوار عمود المصباح ، يعرض في مخيلته تلك المناظر الفاتنة لغايات الملتهى ؛ ولكن ما موقفه هو من ذلك كله ؟... إنه ليس أكثر من دعامة من دعائم هذا الملتهى ؛ بل لعله أشدُّ ذلةً وبؤساً . إن الدعامة لتمرُّ بها المناظرُ فلا تحسُّ لها ديبياً ولا تشعر لها باستجابة ، أما هو . فتمرُّ به هذه المناظر فتلهبُّ قلبه وتثير وجدانه وتوقظ فيه شتى الأحاسيس ، فتظل تساوره دون أن يجد لها ما يشفي الغليل ... إنه ليذكر أن غانية طلبت إليه منذ يومين أن يأتي لها بمعطفها لجأها به ، وكان وهو يحمل هذا الرداء الأملس الناعم المشبَّعَ بعبق مسكر ؛ كأنه يحمل بين ذراعيه صاحبه بجنونها البضُّ وشعرها الفينان ... ولما ناولها إتياء قالت له : « أصلح الخداة في قدسي يا عبده ... ، فهبط من فوره على حذائها ، وأمسك بالقدم العارية تموجُ بلونها الوردى ، وجعل يقلبها وهو يرنو إلى أصابعها اللامعة بنحضاها الأرجواني . وسبحت عيناه إلى الساق البديعة الملتساء . فسرت الرعشة في يده ، وألني وجهه يتداني ، رفقه يتحفز لاختلاس قبلة من تلك المغان .

وما كاد يهيمُ بذلك حتى أحسَّ بدفعة في ظهره أسقطته، وسمع قائلاً يقولُ له :

دع الخداءَ يا غبيُّ ... أنت لا تحسِنُ مثل هذا ...
فتنحسَى « عبده السهتان » عن مكانه ، وجثأ الرجل يصلح
للغاينة وضع قدمها في الخداء ، ثم لمحّه وقد اتهب قبلة مترعة من
ساقها الرشيقة ... وأرسل « عبده السهتان » من أعماق صدره
زفرةً جيّاشةً ... محظورٌ عليه أن يستمتع بمثل هذه القبلة ، على حين
أنها ميسورةٌ لغيره من أمثال ذلك الرجل ... وصعد بصره
فيه فإذا هو « أبو النبايل بك » الشيخ المتصاّبى الثرى الذى قضى
أطيب عمره فى صلاح واستقامة ، حتى أشرف على الستين ، فإذا
بالشيطان يسوقه فى معتركِ الشّهوات ، فيتبدّل ويخلع
ثوبَ الوقار ...

إنه « أبو النبايل بك » ، ذلك الذى يختلف إلى المنهى كلّ ليلة
ولا يظهر فى ليلة إلاّ بحلة قشبية لم يظهر بها قبل . هو صاحب
تلك المحفظة السحرية التى تخرج منها الأوراق تبعاً دون
أن ينقطع لها فينض ، هو الذى إذا جلس إلى خيوان الشراب
تهافتت عليه أسراب الغواني يُحطنه بسواعدهن الرخصّة ، وتعالى
حواله أصواتهن بالمرح والدُّعابة ... على حين أنه هو عبده السهتان ،
لا عمل له إلاّ أن ينظر ويَتَنَهَّد ا

واعتدلَ في وقفته بجوار عمود المصباح في الشارع ، وقد أيقظه من أخلته صوتٌ انبعث من بوق سيارةٍ تعدو ، فأطار من رأسه تلك الذكريات المتداعية ، والتي نفسه يرسل في الهواء بصفةً ، ويردُّد :

« مكان سيء السمعة ... تهتك ... دعاة ... قبلاً لتلك الحياة ... » ، إن « الحاجة فاطمة ، لم تعد الحق حين وصفته بأنه نجسٌ قذرٌ ما دام يحتمل في هذا المكان ... وطأ رأسه ، والتقط السفط ، ثم انطلق إلى السوق .. وجاز في طريقه بقبوة ، فدخل فيها وألقى السفط ، وجلس يتناول فطوره كوباً من الشاي وجانباً من الكمك ، ثم أشعل لفافة ، وراح يجذب أنفاسها في غير اكتراث . وأمال بصره إلى سفطِ « الحاجة فاطمة ، قابلاً تحت قدمه يمثلُ الطهر والوقار والتقوى ... وطال إليه تحديقه ... إن صاحبة هذا السفط مكتوبٌ لها نعيم الجنة تخلد فيه ، أما هو فمكتوب له عذاب النار وبئس القرار ... وركل السفط ركلة ألقته بمبدأ ، وما لبث أن لاح لخلجته شبح « أبي النبسايل بك ، ذلك الشيخ السادر في مآثمه . المهتك في شيبته بعد حياة عفة ونقاء ، وتمثله ، وهو يشاركه في مكانه من الجحيم ، فطأنت بقمه ابتسامةً ، وهمهم :

« العبرة بالخاتمة يا حاجة فاطمة ... »

ونادى بخادم القهوة، فدفع إليه ثمن الشاي والكمك من نقود سيدته .. ومر به بائع لفائف التبغ فاشتري علبة ودفع ثمنها من تلك النقود أيضاً ...
وكان وهو يدفع هذه النقود يتجه بطرفه خلسة إلى السفط، ثم يزور عنه سريعاً ...

* * *

كان الملبى في مساء ذلك اليوم غاصاً بالرواد، كله عبثٌ صاحب، عبث في النور، في الشراب، في الرقص، في الكلام، في الضجّة ... عبث في كل شيء ...

إنها حفلةٌ ممتازة من حفلات السنة

وانتشرت الغانيات في الملبى تناسباً بين الموائد انسياباً الظباء بين الخنازل ... وكانت لفائف التبغ حيرى متعبة وهي تعلق وتهبط في الأيدي رائحة غادية، ثم يُقذف بها وهي في جديتها لم يستوف تدخينها، فتطوها الأقدام لاهية غير عابثة ... وتراءت الحصور تثنى، والنهود تترجح على أنغام الجاز، والغناء يرتفع فيختلط بالضجيج متزايلاً فيه، واشتدّت الزحمة، وكثر الطلب لأقداح الخمر، واختلط السقاة بالرواد، فلم تعد تميز بين خادمٍ ومخدوم؛ حتى لقد ترقى الصوائى طائراً فوق الرؤوس ذاهبة آية بلا هواذة ولا رفق كأنها وحدها تسير ... كل هذا

و « عبده السهتان ، بجوار رفيقه القديم عمود الملهى برى
ويتحسر. وعينه تنقلان بين الأقدام الفتانة والسبقان العارية ،
يطوف بخاطره حادث الغانية التى هم بتقبيل ساقيها وهو يعالج
وضع قدمها فى الحذاء . . . وكان يخادع السقاة والرؤاد فيحتسى
صبايات الكنوس ، أو يهبط على الأرض يجمع اللغائف فيستمتع
بأنفاسها التى زهد فيها العابثون . . .

وغادر « عبده السهتان ، الملهى بعد منتصف الليل ، وقصد إلى
حانة حقيرة يستكمل فيها حاجته إلى الشراب ، وأندفع يعب من
خمرها المحرقة ، وخيال الملهى بمشاهدة الخلابة بملأ رأسه ويتراقص
أمام عينه . . . أطياف المرأة بسبقانها العارية ، وأقدامها الرشيقة
التي لا تهدأ لها حركة . . . وما إن فرغت نقوده حتى حمله صاحب
الحانة ودفع به إلى الطريق ، وبعد تجوال هنا وهناك مترنخاً
متساقطاً احتواه وكره العتيق ، فرمى بجسمه على الدكة الخشبية ،
وما لبث أن غمسه سبات ثقيل .

وفى صبح اليوم التالى ، والساعة قد بلغت السادسة ، بدأ
يتعالى أمام حجرته هذا النداء :

يا ولد يا عبده . . . يا عبده الكلب . . . يا نجس !

وكانت الألفاظ يزأحم بعضها بعضاً متجمعة حول حجرته
تحاصرها وتزأبها هزاً عنيفاً ، وما لبثت أن افتحمت الباب

وتدفقت تصارع أذن « عبده السهتان ، وكان في ذلك الوقت
أسيرَ حلم تراءى فيه غانية الملهى تمدُّ له ساقها ، ايصلح وضع
قدمها في الحذاء ، وهي تغمز له بعين مسترخية ، وتبادلته ابتساماً
بابتسام ... ولكن صخب الملهى تزايد بغتة ، وظلت الضجة
تعلو ، ولقظة « نجس » تتطير كالشمر في هذا الجو الناثر .
و « عبده السهتان » يتقلب في فراشه دون هوادة ، وكاد يصرخ
ليسكت الضجة ، فوجد عينيه قد تفتحتا بمحافتين ثم ألنى نفسه يصبح
بصوت جهورى :

حاضر ... حاضر ...

ونفض مهرولا ينفض النوم عن جفنيه ، ورأسه ما برح
مثقلا بما عب في ليلته من شراب ، وراح يههم في زججسة
مكتومة ، ودلف إلى باب مسكن « الحاجة فاطمة » وعسلى فيه
ابتسامته المطبوعة ، وإشراقه المتصنع ، ووقف على قيدِ خطواتين
من الباب ، وقال وهو يمسح لعابه المتسائل :

أية خدمة تبغين يا ستى الحاجة ؟

وتخايل شبحها من جانب الباب ملففةً بالبياض ، فراح
يسارقها النظر ، فتجلى له جسمها المكتنز ، ورأى قدميها الناصعتين
تملان القيقاب . وسمها تقول :

ألا تعرف عمك يا قدر ؟ ... عمك الذى تأخذُ عليه أجر ك ؟

أليست اللقمة التي أمحك إياها هي التي تقوتك يا نجس ١٤
واندفعت تطلق عليه قذائف السباب متراحة حامية ، خدق
فيها ، ثم صاح :

كفّاك شتيا... ماذا تغنين نفسك ١٤

... أذنب ثم تتوقح وتبجح يا قليل الأدب ؟

... صوني لسانك عن هذا الكلام... وإلا...

... ماذا يا كلب ؟ ... ماذا يا نجس ؟ ...

ورفعت السّيط في يدها ، ثم قذفت به في وجهه ساخطة ،
ولكن اندفاعها وهي تقذف بالسفط جعل القباب ينزلق
عن قدمها . فنظرت القدم جلية أمام عين الرجل ، وإذا
به الحاجة فاطمة ، تفقد تماسكها وتوشك أن تهوى ، فعجل إليها
د عبده السمّتان ، مارقاً من الباب . فأمسك بها يريد أن يحميها
من السقوط ، فتهاوت عليه بجسمها البدين : فسقطا معاً ، وقد
التوت قدم الحاجة فاطمة ، فرددت متألمة :

رجلى... رجلى...

ونفض الرجل ليرى ما أصابها ، وامتدت يده إلى قدمها
يتحسسها ويدلكها وأحس بها ناعمة الملمس ريانة الجوانب ..
وزاغ بصره ، واضطربت أخيلته ، فلم يعد يميز أية قدم هذه التي
بين يديه ؟ ... وأخذت المشاهد تتشابك في رأسه المنقل بأثار

الشراب ... حادثته مع غانية الملبى ، « أبو النبايل بك ، الشيخ
المتصاني الثرى ... اليلة البارحة وما كان فيها من عبث وبعث ...
وكانت يده ما فنتت ذلك قدم ، الحاجة فاطمة ، في حنان
ورفق ، وخيّل إليه أنه يسمع صوتها وهي تقول :

تَسْمَعُ نَدَى : لا تمس قدمي يا نجس !

ووثب في مخيلته مشهد « أبي النبايل بك ، وهو يتبوأ معه مقعده
من الجحيم ، وقد تدانى منها شيخ « الحاجة فاطمة ، في طريقها إليهما ...
وإذا بضحكك صاحبة تنطلق من حلقه ، فهز لها جسمه ...
وإذا بعينه تلتهمان وتسبحان إلى ساق « الحاجة فاطمة ، ...
وإذا به ينقض بغمه على الساق الناصعة الملساء وقد طوّفها
بيديه ، وشفته تخرجان ...

رشاع صمت عميق لم يكن يشوب صفوه إلا بعض زفرات

وتهدات ... !

« أبو علي » وزجاجة الكونياك

ترك « أبو علي » ، الاستوديو ، ودلف إلى الشارع يتخطى في مشيته ، ويتعالى بقامته القصيرة ، متلفتاً يميناً ويسرة إلى السابلة حوله ، يجود عليهم بين الحين والحين بنظرات خاطفة من نظراته المنرفة المتعاطفة .

لقد أكل اليوم دوره في فلم « النجوم العشرة » ، وهو دور على قصره مفعم بأكبر الحوادث خطراً ، وأعظمها شأنًا . يمثل مشاجرة عنيفة تقع في قهوة بلدية ، وكان دوره ينحصر في أن يتأثر « نزاك » - النجمة العالمية المصرية - فيطارحها الغزل على قارعة الطريق . فيخرج له من القهوة « أبو عفان الباطجي » ، - النجم المصري العالمي - فينهره ... وسرعان ما تستخدم المشاجرة العنيفة التقليدية ، ثم تنتهي على أحدث الطرق الفنية الأمريكية . . .

لقد نال « أبو علي » ثلاثة جنيحات ، أجرأ على قيامه بتمثيل دوره . وهي مكافأة في الحق بخساسة ، قبلها تضحية منه في سبيل الفن ... ذلك الفن الذي وقف حياته على خدمته ،

والعمل على رقيه ، لا يتغنى من وراء ذلك جزاء ولا شكورا ...

سار ، أبو علي ، في الطريق متفتح الشدقين نافر الأوداج .
لقد كان انتصاره في الواقع عظيما ، ولكن لكل انتصار ثمنه .
إنه يسكنم مابه من ألم صارخ ، ويتحسس خفية رأسه وصدرة
وساقيه وما فيها من كدمات وجراح . ولكن كل هذا هين
منسور ... حسبه أنه استطاع بحيلة طريفة أن يطرح
البطجي أبا عفتان ، أرضا ، وأن يجعله يترع في
سحاة الطريق ...

وداعبت أصابعه المحفوظة العامرة بالورقات المالية
الثلاث ، فهبت على الأثر أمامه عاصفة من المطالب والرغبات .
وما أسرع أن قفزت المشروعات الفنية إلى خاطره تتدافع
وتتسابق ، ففسح لها أرضا رحب الامكنة وأطيها ... ومر ياله
عقوا مطلب عتيد لأمه ، حلم قديم طالما رغبت في تحقيقه ،
ولكنه ظل عنها بعيد المنال ، ذلك هو الحصول على كيسة
من الأرز وبضعة أرطال من الزبد لكي تنعم بمذاقها فترة
من الدهر ... وبرز أمامه حانوت يقال ترصع وجهته أشنات
من السلع المغربية بحسن رصفها وتنسيقها ، تخفف من سيرة ،
معتزما أن يدخل الحانوت ليشتري لأمه ما طمعت فيه ...

إن للأمم حقا يجب أن يرعاه... وما كاد يخطو صوب الخانوت
حتى تراءت له «قهوة الفن» بموائد العتيقة الجائرة على طوار
الطريق، وحول كل مائدة شردمة من زملائه الفنانين يناقشون
في صخب وشغب. وتكسوت روائح الخمر تداعب
خياشيمه العطشى، فقد نفضى عليه وقت طويل لم يطرُق
فيه هذا العُش الحبيب، فأحس الصبوة تحتاج في
قلبه وتثور...

وحسَّ خطاه نحو القهوة، وما هي إلا أن طوته في غمارها
المتدفقة...

واحتل «أبو علي» إحدى الموائد، ودعا بالشراب، فالتف
الأخدان حوله، فانطلق يُحدِّثهم عن فلم «النجوم العشرة»،
ودوره فيه، وغاض في ملاحظاته وتقدّاته. وكان يعبُّ
من «الكونياك» عب من استعر أواره، والأخدان يحيطون
به محفنين مهللين، وزجاجات «الكونياك» تتوالى، والكؤوس
تصعد مترعة إلى الشفاه، وتبسط فارجة إلى حافة المائدة،
والضجة تتعالى، وقهقهة «أبي علي» تجلجل مُجسِّحة في سماء
المكان لا يقرُّ لها قرار...

وما كاد الليل ينتصف، حتى نهض «أبو علي» يودع رفاقه،
ودفع بمن الشراب كاملاً في سحاه وإمارة. وهو ينهز الساق

ويزجره... نهض يترنح غير مكين في وقفته. فهرع إليه الصبي
ماسح الأحذية ينفذ عن حذائه المتغصن المتآكل ماعلق به
من تراب... فرمقه بنظرة شزراء، وغمغم قائلاً وهو يقذف
إليه بقطعة من النقود:

اذهب يا ولد فأحضر لي عربية... ..

— على عيني ورأسى يا بك... ..

ولم يكد الغلام يستدير على عقبه خارجاً حتى شعر بقدم
«أبي علي»، تدفعه بغلظة في ظهره فانكفاً على وجهه، وانبعث
الأستاذ بجمع بضحكة جبارة موصولة الحلقات... .. ووقع
بصر «أبي علي»، على زجاجات الكونياك: متراصة على المنضدة
تلمع في وضاء وسحر: كأنها الغواني الفاتنات يتغادين على
المسرح يشرحن على النظارة فذهن البييج، وفطن إلى أن إحدى
الزجاجات ما يزال بها بضع جُرعات، فغافل الجمع - أو بداله
أنه قد فعل - واجتذب الزجاجات فدسها في جيبه... .. وخرج
يتهادى في خُطاً متعثرة، فألقى العربة تنظره فصعد فيها
وانحط على مقعد ما، ففطس فيه فلم يظهر منه إلا قدما قد ارتفعتا
واستقرتا خلف مقعد السائق... .. وسُمع صوته يصبح في حشرجة:

إلى سيدنا الحسين يا أسطى... ..

وجعلت العربة تُجرُجرُ بحمانها الأعفنين المجهدين

وسائقها المهديّ المتجمّع على مقعده العاليّ العتيق ، وراح
« أبو علي ، يترنّم بمختلف الأناشيد ، تارة يعلو بها مصوتاً ،
وتارة ينزل بها إلى أدنى درجات الإيقاع ... وعيون السابلة
تفتحته في فضول ، وسوط السائق ينكش منطوياً على نفسه ،
ثم لا يلبث أن ينسطّ في فرقة مدوية ، كأنه يكمل النعمة
فيما يترنّم به الأستاذ من غناء أصيل .

واتهى المطاف بالعربة أخيراً إلى « سيدنا الحسين » ، ونزل
« أبو علي ، وقد أفرغ ما في جيبه في يد السائق ، وتباطأ برهة في
سيره حتى لا تفوته كلمات الشكر والاعتراف بالجميل ، يقدّمها
السائق على مسامحه ، ولكنه سمع الرجل يصبح متسخطاً
متبرّماً فاشرباً إليه مهتاجاً ، وقد تنفخ في وقفته ، وجعل
يجارّ بقوله :

أتحسب أيها الوضع أنك قادر على أن تنفّلي ، وتنال مني
مالا تستحيقه ... لا يستطيع أحد كائناً من كان حتى الجن
الأزرق أن يستخفّ بي ويهزأ ...

وطال النقاش ، وتشابكت الأصوات في ضوضاء تعكّر
صفو الليل الودع المستنير ، وسمع صوت قاري يرتل آي
الذكر الحكيم على مقربة من المتشائمين ، فأمسكا ... وغنم
« أبو علي ، قائلاً :

أما تستحي أيها الرجلُ أن تغلي صوتك على صوتِ
القرآن الكريمِ !؟

وأيقن السائقُ أن ليس ثمة حيلةٌ تجدي مع هذا القزمِ
الصخّابِ ، فاستدار بعربته ، وانبرى يفرّقعُ بسوطه على ظهري
حصانته الأعجفين ، وهو يبرطمُ لاعناً الزمن وأهله ...
وانحدرت العربة تجرّجراً في منطفاتِ الطريقِ يطويها
الظلامُ البهيم ...

ومضى « أبو علي » في الشارع يتخايلُ في مشيته ، وقد دسَّ
يديه في جيبه ، وأبرز صدره وعلا بهامته ... وعرجَّج في مسيره
على القاري . وهو على حاله يرتلُ آياً من الكتاب العزيز .
فوقف قبّالته يستمع ، فما انتهى القاري إلى مقطعٍ حتى يغسل
« أبو علي » بقوله :

الله ... الله ... !

ولمّح يدَ القاري . تمتدُّ طلباً للعطية : والمستكنة باديةً عليه .
والحاجةُ تفصحُ عن نفسها في أسنانه البالية ... فتحرّكت الشفقةُ
في قلب « أبي علي » وثارَت أرحمته ، وعقد عزمه أن يهب لهذا
القاريِ أسخى عطيةٍ تنقذه مما به من بؤس وضرٍّ ، ابتغاءً ثويةً
الله ورضوانه ، فرفع يديه إلى جيب صدره ينقب ويفتّشُ ،
فلم يجد شيئاً . فبحث في مختلف جيوره الأخرى وقد أخذ منه

العجب كل ما أخذ ، فأيقن أنها خاوية جميعاً ... أيكون
الحوذى قد سلّبه ماله؟ ... وهمهم في حيرة يستمطر اللّعنات
على ذلك الوغد الزّيم ...

وكان القارىء يسترسل في ترتيبه متحمساً ، ويده تمتدُّ
أكثر من ذى قبل مهترّة تستعجلُ العطاء ...

وعاد « أبو علي » إلى زوايا جُيوبه ، وخفيا ثيابه ،
يتّحسّسُ ويتلّسّسُ . فاصطدمت يده بزجاجة « الكونياك »
القابعة في ركنها الكمين ، فانزَعها ، وأخذ يتفحصُ البقايا
في قرّارتها .

وطالت وقفته ، يتأمّلها ويُدِيرُها بين أصابعه ، واختلجت
شفته اختلاجة الحنين ، وتجمّساً طويلاً ، ثم اشْرأبَ إلى السماء
وقد أشرق وجهه بإبحار عميق ، وعزم وطيء .

وفي حركة تمثيلية رائعة امتدّت يده بزجاجة « الكونياك »
إلى القارىء ، وارتدّ يتملّ في خاطره أن العمل الصالح لا بدُّ
فيه من تضحية بالنفس أو النفيس ... !

وانكفأ « أبو علي » ، راجعاً إلى طريق بيته ، وهو راضٍ
جذلاًن ، مطمئنٌ الضميرِ بعمله الكبير ...

وانبعث يُخْرِج من فيه صَفيراً يُوقِعُ به أحدَ أناشيدِ
« النجوم العشرة » ...

الطابور الخامس

تركَ الشاويشُ دَاحِدَ فرقع ، دارَ شُرطَةِ السيدة ، حيث
انتهت نوبته فيه ، وسار في الطريق بحمسه الممتلىء القصير ،
كأنه كرةٌ تتدحرج ، ميمِّمًا شَطْرَ دَ السيوفية ، ايحظي
بجاسةٍ مُرِيحةٍ في قهوةٍ دزينة المدينة ، على مالوفٍ عادته كل يوم .
لقد قضى النهار بأكله يعملُ عمله المُنْضَى يتلقى الأوامر
من رؤسائه ، ثمَّ ينفذها في مخلوقات الله من الباعة
الجوالين ، والمستجدين ، وغائمان الأزقة . فرجع أبحج
الصوت من شدة الصياح ، متعب القدامين من الرواح والغدو ،
قيامًا بالواجب الملقى على كاهله . وكان على الرغتم من إجهاده
مشغول الفكر بموضوع غامض لم يهتد إلى كشفه ؛ وهو موضوع
الطابور الخامس ، فقد طال التحدثُ به في دار الشرطة ، وكثرت في
شأنه لفظ الرؤساء ، سمعهم يتباحثون فيه ويتجادلون في جيد واهتمام .
تارةً همسا ، وطورا جهرًا . وخجل أن يسأل أحداً عن هذا
الطابور ، لئلاَّ يتهم بالجهل ، وتثار حوله عاصفةٌ من السخرية
كما وقع له قبلاً حينما أراد أن يستوضحَ من بعض رؤسائه

حكاية الألقام المغنطة ١

دخل الشاويشُ « أحمد فرقع ، قبوة » زينه المدينة ، ،
وأخذ يحتمسى شايه الأخضرَ قدحاً إثرَ قدح ، وقد استلقى
منتفخاً على كُرسيه يقرقرُ بنارجيلته ، وأزاح طُربوشه
عن جنبته ، فلم يعد يغطي إلا مؤخرَ رأسه ، وبسط جريدة
الاهرام ، ومضى يطالعها ، أو على الصحيح يقلب فيها النظر ، ويعبر
عناوين المقالات ، فصادفه عنوانٌ بالخط العريض :

« الطابور الخامس وضرورة مكافحة رجال الأمن له ، ...
فهرش رأسه طويلاً ، ثم عاد يقرقرُ بنارجيلته .

وجاءه نقر من أصدقائه - أخلاط من أشباه المتعلمين -
فما كاد يستقرُّ بهم المقامُ حتى انطلقوا يثرثرون في مسائل
الحرب ، وما كسبته الدول وما خسرتة ، وأدلى كلُّ فرد
برأيه في مستقبلها ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى « الطابور الخامس ،
فأرادوا أن يتبينوا رأى الشاويش « فرقع ، فرمقهم بنظرة
متعالية ، وابتسم ابتسامة تحفظ ، ثم أخذ يقهقه في وقار وهو يقتل
شاربه الغليظ ، فقال أحدهم :

لا يريد الشاويش « فرقع ، بالطبع أن يتكلم أماننا عن
مصر المسهنة ...

فانطلقت قرقرة النارجيلة جبهة متحمسة تجيب المتحدث

بدلاً من الشاويش الكتوم !

قضى الشاويشُ سهرته في قهوة «زينة المدينة» ، وهو يحس راحةً ونشاطاً ، وهضى صوبَ منزله ، ولم ينسَ طبعاً أن يشتري شمامةً طيبةً من بائع جوال ، تأبطنها في زَهْوٍ وهو يضرب الأرض بنعلينه الثقيلتين في خطوات ، تزنه .

دخل الشاويشُ داره فاستقبلته زوجته «روايح» بقدها السمنهريّ ، ووجهها الفاتن ، وابتسامها المتألقة ، فشاعت الغبطة على أساريه ، وقال لها وهو يناولها الشمامة :

أوحشتني ، ما أطول النهار على وأنت غائبة عني !

فقال في دلال ظاهر ، وهي تضعُ الشمامة جانبا :

وأنت أيضاً لقد أوحشتني ، إن أفكرُ فيكَ طول النهار ،

وأقول :

ماذا يغمَلُ يا تُرى ؟ ... الدنيا كلها متغيّرة ، وكلامُ

الناس يدعو إلى القلق ... أدعو الله أن يُطمئنني عليك ...

أنتَ عندى بالدنيا ... !

— لا تخافي عليّ يا رويح ... أنا لها ... !

— صحيح يا حمودة يا سبّح الرجال ... !

وراح الشاويشُ «أحمد فرقع» يتأملُ وجهها طويلاً وهو

صامت ، ثم عاد يقولُ مغنمًا :

ترى ماذا عملت طولَ النهارِ يا رواجٍ ؟
قالت وقد زادتُ من تدلُّلِها :
عملتُ الذي قلتَ لي اعْمَلِيه ا

— صحيح ... ١٤ ا

— ورأسك الغالي ما خرجتُ من البيت ا

— والحاجات ، من أن بها من الشوق ؟

— جاءت بها حلويات بنتُ الجيران كما أمرتني ...

— والشبَّاك ؟

— والله لم أقربُ منه ، فقدتُ عينيَّ إن كنت كاذبة ا

— تسلمُ عيونك ... ولكن ... ربما يمكن ...

— ماذا يمكن ؟ ... أقسمُ بالله إن يدي هذه لم يرها أحد

غيرك يا مؤمن ا

— حقاً ، ألم يرها أحد غيري ؟

— لا والله ، ولا أطرافَ أصابعي ا

فاحتضنها الشاويشُ « فرقع » وهو يكرّرُ قوله :

يا رواجِ القلب ا ... يا رواجِ النفس ا ... يا قطعةً من

مُنْجَسِي ا

... وجيءَ بالشَّمَامَةِ ، فوضعتُ في صينية وسَطَّ الحجرة ،

وجلس إليها الزوجان ، وأخذوا يقطِّعان منها ، ويلتھمان إلتھاما ،

وعاد الشاويش « أحمد فرقع ، أثناء الطعام يسأل زوجته في حوادث يومها مستفسراً على دقائق الأمور ، مطالباً بالشرح والإفاضة ؛ كأنه يُحرّر محضراً تحقيق في دار الشرطة ، و « رواج ، تجيب بلا ملل ، وقد تشفّع الكلمة بإبتسامه مضحوبة بغمزة عين ، والجملة بضحكة ناعمة مريحة . . . وكان أن ختم الشاويش حديثه بقوله :

أنت تعرفيني . . . لا بد أن تنفذى أوامرى حرفاً بحرف .
فأجابته وهي تجمع فضلات الشمامة في الصينية :
أيقدر أحد أن يخالف لك كلاماً ؟

وكان الشاويش مع تدلّه بحب زوجته يكره منها شيئاً واحداً :
أنها تعرف أن تفك الخط ، فقد عد ذلك خروجاً على التقاليد الصالحة ، فأصدر أمره إليها أن تكف عن مزوالة هذه البدعة ؛ بدعة القراءة والكتابة ، فليس عليها أن تشغل نفسها بما لا ينفع ، إذ أن فك الخط ، من أعمال الرجال ، فلتتركه له وحده !

* * *

وانطوت الأيام والشاويش « أحمد فرقع ، يحيا حياته الراتبية هذه في رضا وارتياح . كل شيء يسير وفق هواه .
ولم يكن ينغصه إلا أمر واحد هو « الطابور الخامس ،

لإذ لم يصل بعد - بالرغم من بحثه واستقصائه - إلى كشف
ما يحوطه من غموض ا

وشوهد الشاويش^١ ، فرقع ، مرة عائداً إلى داره وهو
يحملُ قرطاساً كبيراً من المشمش الحوى ، ؛ تلك الفاكهة الطيبة
التي لم تغمر السوق بعدُ ، والتي لا يحصل عليها إلا المقتدرون .

ودخل البيت وهو يعدُّ الجملة التي سيقابل بها زوجه :
« انظري يا رواج ماذا أحضرت لك ...؟ أي الرجال جاء
إلى أهل بيته بمشمش حوى ١٤ ،

ولكن لم تقع عينه على زوجه ، فصاح يناديها ويكرر النداء ،
فلم يجبه أحد ، فوضع القرطاس بجوار الباب ، ودخل يبحث
عن زوجه وهو مهمم :

لماذا لا تردُّين علي يا رواج ١٤

وطاف المنزل . فلم يجد أحدًا ، فوقف وسط القاعة ، وصاح
صيحة مدوية :

تعالى هنا يا رواج ... إني أكره هذا المزاج ا

وأخيراً جلس على المقعد يجفف عرقه ...

لعلها تكون قد خرجت لتفسي حاجة ، ولكن كيف تعصى

أمره وترك المنزل ١٤

وقام ثانياً ومضى يناديها ، وقد انتفخت أوداجه ...

ووقع بصره بغتةً على خزانة ملابسها فوجدها مفتوحة ،
فهرع إليها ينظر فيها ، فألفاها خالية من الثياب ... ١
واندفع في لمح البصر إلى الصندوق الصغير الذي يحوى
حليتها ، فلم يجد فيه شيئاً ، فانسعت حدقتا عينيه ، وانطلق
ينغمخ في خلط :

أيسكون اللصوص قد انتهوا البيت ؟ ... ولكن رواج ..
أين ذهبت ؟

ورأى في قاع الصندوق بعض أوراق متناثرة ، فأخذ واحدة
منها ، فألفاها رسالة ماكاد يقرأ منها سطرأ حتى دارت الدنيا
أمام ناظره ...

أبعد الرسالة عن وجهه ، ولكنه ما لبث أن أداها من عينيه ،
واندفع يقرؤها ، وأخذ أخرى وتنفسه يزداد اضطراباً ، ثم الثالثة
ورابعة ...

وقام يروح ويحني في عرض الحجرة ، وهو لا يفتر يسائل
نفسه ويكذب عينيه ، وشاهد غير بعيد منه قرطاس المشمش ،
وكأنه ينظر إليه يسأله :

ما الخبر ؟

فركله بجذاته الثقيل ركلة بعثرت ما فيه ، ثم عاد إلى الصندوق ،
ومضى يجمع الرسائل ويعيد تلوونها ...

يا لله من هذه الجبل المنمقة التي ينبعث منها عطر الغرام نائراً
فَوَّاحاً ...

ويا لله من هذه المواعيد الجريئة التي لم يكن يخطرُ على باله أن تقع ...
وأخيراً يا لله من هذه الأسماء التي تُخَسِّمُ بها الرسائل ... إنه
يعرف أصحابها ، كلهم أصدقاؤه ، ضيوف قهوته ، زيتة المدينة ، أشباه
المتعلمين ، من يمدُّونه بطلهم ، ويغمرونه بكل مهابة وإجلال ...
واقترش الأرض متربهاً والرسائل تملأ حجراً ...

وانسرح يفكر ، وطال تفكيره ..

ولمعت عيناه فجأة بوميض حاداً

في هذه اللحظة وحدها استطاع الشاويش « أحمد فرقع ، أن
يفهم ما خفي عليه فهمه من أمر « الطابور الخامس » ...

لقد اهتدى على ضوء تجاربه الخاصة إلى حلِّ الغزال العويص !

البديل

نشأت ينم الأب والامّ ، أعيش مع عمى فى منزل الأسرة بحلوان . وكنت أبلغ من العمر العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة التى أروىها . وقد أخبرونى أن أبى قدمات وأنا رضيع ، أما أبى فقد توفيت ولى من العمر أربعة أعوام ، فلا أذكر منها إلا طيفا خفيفا ، قليلا ما ألم بى ، وسرعان ما اختفى ، وكانت تعيش معنا سيدة تدعى دالست عيوشة ، من أقارب عمى ، ولم تكن بالمرأة المحببة إلى . هى نحيفة طويلة صموت جافية الطبع ، لها نظرات كريمة وابتسامة عاطفة تبعث الاشمزاز فى النفس .

وكان عمى يعاملنى بغلظة ؛ ولكنه يُشعرنى فى بعض الأحيان بشيء من العطف . وكنت أخافه وأكره منه غلوه فى التحفظ ، ودقته البالغة فى النظام ، وهو يبلغ الستين ، مديد القامة ، حاد النظرات ، يسير فى خطوات عسكرية متناقلة ، يلنزم فى حياته نظاما دقيقا لا يحيد عنه ، فلا أتذكر أنه تأخر مرة عن موعد الأكل ، وإذا حلت العاشرة مساء وجدته أمام مكتبه غارقا فى أبحاثه القضائية ..

كنتُ في ذلك الوقتِ في مستهلِّ الإجازة الصَّيفيَّة ، أقضى
يومي إما في حديقتنا الصغيرة : أتسلق الشجر مع أولاد الجيرانِ
أو ألعب معهم بالكرة .

وبينا كنَّا نلعبُ ذاتَ يوم بالكرة أمام الدار ، إذ رأيتُ
سيدةً تحترقُ الشارعَ ، فلما رأتنا تتقاذفُ الكرة ، وكشيتُ
أن يصيبها منها أذى ، سارت على الطَّوارِ بجوار الحائط متجنِّبة
مرماها ، كانت حسناءً في مقتبلِ العمر ، ذاتَ شعرٍ أصفرَ
يلع لمعانَ الذهب ، تجذبُ الأنظارَ بأناقيتها وزينتها ، وتمسكُ
بعضاً في يمينها تعبت بها يمينهً ويسرةً .

وما هي إلا أن كَذفَ أحدهم الكرة فانطلقت صوبَ
السيدة ، وكادت تصيبها لولا لحاقِ بها وتحويلِ اتجاهها ، ونظرت
إلينا السيدة نظرةً بين الغضبِ والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها
يقع عليّ حتى توقفت عن المسير وأخذت تلاحظني ، ثم ابتسمت
لي في رفقة ، فلم آبه لها ، واستأنفتُ لعبي ، ورأيتها واقفةً
مكانها بضع دقائق تبغني بنظرها المشغوف حينما تنقلتُ .

وفي مثل ذلك الوقتِ من اليوم التالي ، رأيتُ سيدةً أمسِ
تسير على مقربةٍ منا في خطواتٍ متمهِّلة ، فالإن وصلت إلى
شجرةٍ على جانب الطريق حتى وقفت في ظلِّها ترقبنا ونحن
نلعب ، وشعرتُ بها تحضني — دون رفاقي — بنظرها . وبعد

برهةً لمحتها تشير إلى يديها تستدعيني إليها ، فلم أستجب ،
وواصلت لبعي ، وظللت السيدة تلاحظني في اهتمام ، فضايقتني
هذه الملاحظة بعض المضايقة ، فارتبكت ، وهجم علي وقتئذ
زميل^١ أوقعني وانزع الكرة مني ، ورأيت السيدة تهرع إلى ،
وتساعدني على النهوض ، وتنفض التراب عن ملابسني ، ثم انتحت
في ناحية وسألتني :

هل أصابك ضرر ؟

فأجبته : كلاً ...

وأخذت تدقق النظر في ، ثم قالت :

يا لله .. أنت مجروح !

— مجروح !؟

— جرح^٢ خفيف ... خفيف^٣ جداً ...

وكان صوتها موسيقياً عذباً أطربني ، فأصغيت لها ...
وأخرجت مندبها ، وأخذت تمسح جرحي ، وتجفف عرقي ،
فانبعث من المنديل عطر جميل أنعشني ، وقالت لي :

أأنت الآن أحسن حالاً ؟

— لم لا أكون أحسن حالاً وأنا لم أصب بضرر !؟

فابتسمت ... وشعرت بأن إجابتي كانت جافة ، ورفعت
بصري إليها ، فوجدتها تحديق في وقد بدا عليها حشوة غريب ...

فاختلج قلبي ، وقلت :
نحن نلعبُ بالكرةِ دائماً ، وكثيراً ما وقعنا .
— أين تسكن ؟

— هنا .

وأشرتُ إلى منزلنا ، وجعلُ أهدُّ رفاقي يناديني :
واصفُ ... وَاصفُ !
فقلت السيدة :

أهو اسمك ؟

— نعم ...

فأخنتُ على جيبيني تقبُّله ، وأمرتُ يدها على رأسي تلاطفه ،
ثم قالت :

انطلقْ إلى أصدقائك يا حبيبي .

وانطلقتُ العَب ... أما السيدةُ فشيءٌ عشتى بنظرةٍ طويلة ،

ثم تابعتُ سيرها بطيئةَ الخُطَا .

وفي المساء اجتمعتُ كعادتي بعُمِّي ، و« الست عيوشة » ،

على مائدة العشاء ، وكان الصمتُ مخيماً علينا ، كشأنا في كلِّ

ليلة ... « الست عيوشة » ، في جلوسيتها العسكرية لا يفارقُ

وجهها الطَّبِقُ ، تتحرك كأنها آلةُ بزنبركٍ ، وعمِّي بملاحية الصُّلْبَةِ ،

ورأسه المرفوع ، لا تغادر عينهُ الجريدةُ ، ولا يباد لنا حرفاً ...

وأخيراً نظر إلى «الست عيوشة» ، وقال لها :
أسعنت بجاتنا الجديدة ؟
فتقاص وجهه «الست عيوشة» ، وقالت ، وجسمها لم يتحرك
قيداً أنملة :
أية جارة تعنى ؟
فابتسم عمى^١ ابتسامته النكراء ، وقال :
جاتنا الجديدة التي سكنت منزل المرحوم روف بك في الشارع
المجاور لشارعنا
وصمتت «الست عيوشة» كأنما أخجلتها أن يغيب عنها
هذا الخبر .
فقال عمى^٢ :
يظهر أنك لست من أهل هذه الدنيا... إن خبرها شاع
في حائواننا
فقالت «الست عيوشة» ، :
وما أمرها ؟
فأجاب عمى^٣ ، وما تزال على فقه ابتسامته النكراء :
إنها جاءت من الإسكندرية لتشر في هذا البلد الصغير
وباءها... وباءها المهلك المييد...
فحظت عينا «الست عيوشة» ، ولكن رأسها لم يهتز ، وقالت :

أمریضة هی ؟

— أشد من مریضة ... إنها من النوع الهدّام الذی یخرب
البيوت ، ويقوّض سعادة الأسر ... إنها ... إنها ...
ألا تفهمین ؟

— فاهمة !

— سمعت أنها كثيرة التبرّج ، ولها شعرٌ أصفر ، لا بدّ أنه
مصبوغ ...

— مؤكّد ... إنه مصبوغ !

— وقد رأوها تسيرُ بعضاً في الطريق .

— كيف ؟ ... أجموزٌ هی ؟

— أجهل عمرها ...

— لا بدّ أنها تخفي سنّها تحت طلاء المساحيق الثقيلة ... يا لله ...

ما أبشعها ... !

وكان قلبي في أثناء ذلك يدقُّ دقّاً عنيفاً ، ووددت لو تمكنت
من وقف هذا الحديث . وسمعتُ عمي يقول :

أرأيت سيدةً تسيرُ بعضاً في الطريق ؟

فقلّصت «الست عبوشة» ، فها مستنكرةٌ ، وصمتَ عمي برهة ،

ثم تكلم في حزمٍ وتشدّدٍ قائلاً :

أحرّم عليكم مقابلة هذه المرأة أو اتصالكم بها ... !

قالت «الست عيوشة» وقد زوت ما بين حاجبيها :
معاذ الله أن تتصل بهذه الفاجرة !
وقبل أن يترك عمى الحجرة التي على نظرة حادة كأنه
يقول لي :

أفأم أنت ؟

وعندما استوثقت أن عمى صار بعيداً عنا ، قلت
«الست عيوشة» :

عجيبٌ أن يتعامل عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرها !
- وما شأنك وهذا ؟... أرايتها أنت ؟

-- أنا ؟... كلا... ولكن خبريني ، إذأحدث مثلاً أنى رأيتها
تسير في الطريق الذى أسيرُ فيه فإذا أفعل ؟
- تمهلُ رَيتما تخلى لك وجهَ الطريق .

- وإذا رأيتها تقرب منى وتحاول أن تكلمنى ؟

فرمقتنى «الست عيوشة» بنظرة فاحصة ، فاخراج قلبى . ورأيتها
تبسم بفتنة ابتسامتها الشيطانية وتقول :

أراهنُ أنك رأيتها وكلمتها ...

فانطلقت أنكرُ فى تحشُّس ، ولكنى أحسستُ أن إنكارى
ضعيف ، وأن صوتى يَخذُّنى ، ورأيتُ نفسى بعد حين أقولُ
«الست عيوشة» :

اقسم بالله العظيم انى لن اراها ، ولن أكلّمها بعدَ اليوم ...
لا تخبِرى عمى بشيء ا
وتشبّثتُ بجلبابها مسترحماً ؛ فوقفتُ صامتةً تحدّجنى
بنظرها البغيض ، ثم سارت مُتشدّة الخُطواتِ مرفوعة
الرأسِ إلى حجرتها .

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع تقادياً من
احتمال مقابلتى تلك السيدة ، أما عمى فقد ذكرها مرةً أخرى
ونحن على المائدة ، فى حديث مقتضب كله سُخط وثورة ...
فألنى ذلك منه ، وعجبت لهذا الرجل الذى يزعجُ بنفسه فى كل أمر ،
ويريد فرض سلطانه على كل إنسان ا
وفى اليوم الرابع خرجتُ إلى الطريق يدفنى أمل غامضٍ
إلى لقائها ، وتجاهلتُ ما أمر به عمى ، بل شعرتُ بشيء من الزهو
والسرور فى تحدّيه ، وأخذتُ أروح وأجىء أمام المنزل أرقب
ظهورها .

ولما طال انتظارى ولم تحضر ، سرتُ إلى الشارع المجاور حيث
منزلُ د. رءوف بك ، الذى تسكنه . فلما اقتربتُ من بابه وقع
نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت تقطف الأزهار ، ووقفتُ أمام
البابِ ساكناً ، أنظر إليها وأنا مفتون بجهاها ، ذلك الجمال الذى

يَخْنُرُ قَلْبِي بِخَوْهٍ وَعُطْفِهِ وَطَيْبَتِهِ .

كانت تنتقل بين شجيرات الورد في ثوبها البديع ، وشعرها
الأصفر يتموج حول رأسها ، فيخيل لي أني أشاهدُ مَلَكًا من
سكان السماء ...

ولأمر ما ، لفتت وجهها ناحية الباب ، فرأيتني ... ولشدة
ما كانت فرحًا حثيها

فألقت بزهرها على الأرض ، وهزت وابت إلى ،
وهي تقول :

واصفأ ... تعال ... أدخل يا حبيبي ... أدخل .

وحوطني بذراعها وقبلت رأسي ...

يا لله من ذلك الشعور الغامض الذي أحسست به في تلك

اللحظة ...

وأخذت يدي ، ودخلتني الحديقة ، وجمعت ما انتثر

من أزهارها ، وقدمته لي وقالت :

اختر لك منها ما تحلو ...

وأخذت تساعدني في اختيار أحاسنها ، ثم قدمت لي

الصحبة وهي تقول :

هي لك يا حبيبي

وكان في الحديقة دكةٌ جلست عليها وأجلستني بجانبها ،

وجعلت تحدق في وجهي طويلاً وتمسح رأسي ، واكتسى
وجنهها بالحزن ، ورأيتها تمسح عينيهما بحركة
خفيفة ، ثم قالت :

لماذا لم تلعب بالكرة مع أصحابك في ثلاثة الأيام
الماضية ؟ ...

فطأطأت رأسي وقلت :

كنت متوَعكاً قليلاً ... ولكن من أخبرك بأنني لم أظهر في
هذه الثلاثة الأيام ؟ ...

— ذهبتُ بنفسى حيثُ تلعبون ... وكنت أنتظرك

كلَّ يومٍ ...

فصجبت من هذا الاهتمام ، وشعرت بشيء من الخجل ...
ووقع بصري في هذه اللحظة على باب الحديقة ، فتذكرت أمراً
أشعرني بخوف ، وتلفتتُ حولي فرأيت ظلةً بعيدة عن الأنظار ،
فرفعت بصري إلى السيدة وقلت لها :

ألا يُمكنُنا أن نجلسَ في هذه الظلَّة بعيدين
عن الباب ؟ ...

فابتسمت لي ابتسامة لطيفة ، وقالت :

مارأيتك في أن ندخل المنزل ؟ ... لدى شيء أريد أن

أرريك إِيَّاهُ !

وقامت وهي ممسكة بيدي ، وسارت بي إلى المنزل وأنا طامع ،
وأجلستني في الردهة الداخلية ، فإذا بها حسنة التنسيق بديعة
الأثاث ، مزينة بصور كثيرة ، وفي ركن من أركانها
« بيان » كبير ، وعادت السيدة بعد قليل تحمل صندوقاً جميل الصنع
عليه نقوشٌ طريفة ، وفتحته أمامي فوجدته يحوي مجموعة
منوعةً من الحلوى اللذيذة الغالية الثمن ، وقالت لي وهي
تقدمه إليّ :

كل ما تشاء منه ، ثم احتفظ به لك .

فمظم الأمر عليّ ، وقلت متلعثماً :

كلا... هذا كثيراً

فوضعت الصندوقَ عليّ وكتبتي ، وقالت إذا لم تأخذه ساعني
ذلك منك .

- ولكن ...

وأخرجت قطعة من الحلوى ، وقالت لي :

افتح فمك ... افتح ...

وفتحت فمي فرمت بالقطعة فيه ، وأخذت تضحك ،

فانطلقت أضحك أنا أيضاً ... وبعد أن أكلت القطعة قلت لها

بلا تردد :

سأحتفظ بالصندوق لثلاث أكدرتك ، ولكن سأبقيه عندك ،

وسأخذ منه كل يوم ما أحتاج إليه .
فنظرت إلى ملياً ، ثم قالت :
إنهم سيسألونك بلاريبٍ عمن أعطاك إياه ... فأتى أن أفكر
في ذلك ا

ثم صمتت برهة ، وهي تحدق في ، وقالت :
أحبُّ عمك ؟

- أحبه قليلا ، ويحبُّني قليلا ا

- والسبت عيوشة ١٩

- لا أحبها ولا تحبني ... ا

ونظرتُ إليها مدهوشاً ، وقلت :
أترفينهما ؟

فقلت في لهجة طبيعية :

وهل من الصعب أن يعرفَ الجارُ ما يُهمُّه عن جاره ؟ ...

تعال ... ا

وقتُ إليها ، فذهبتُ بي إلى « البيان » وجلستُ على مقعده ،
وأجلستني على ركبتيها ، واحتضنتني بإحدى يديها ، وأخذتُ
يدها الأخرى تنقر نقرأ خفيفاً على « البيان » فيصدرُ عنه
نغم هادىٌ لطيف ، وأحسستُ فيها يلسُ رأسي ويقبلُ شعري ،
ثم قالت في صوت موسيقى هادى :

كان هناك طفلٌ يسألني دائماً أن أعرفَ له هذا النشيدَ ، وأن
أغنيه له ... طفل جميل كان يحبني وأحبه .. لجماءنا ليلة زائر
كريمةٌ بمقوت يلبسُ السوادَ ، مقنَّع الوجه بقناع حالك ، وانزعجه
مني ، ثم خرج به إلى الظلام واختفى ...

فسألتها وأنا أحدقُ أمامي :

وأين ذهب الزائرُ بهذا الطفل ؟

فأجابت في صوتٍ مختلج النبرات :

ذهب إلى حيث لا يعود الناس ... ذهب إلى آفاق نائمة ،

سنذهب كلنا إليها يوماً ولا نعود ...

وتابعتُ كلامها ويدها تنقر على «البيان» هذا النغم الهادي

اللطيف :

سأغني لك هذا النشيد على يروك ، كما كان يروق ذلك الطفل

العزیز. كنتُ دائماً أجلسه هذه الجلسة ، فأحوطه بذراعي ، وألمسُ

شعره بعمي ، وأبداً صدري بعبير شعره الذهبي ... اسمع ...

اسمع ...

وأخذتُ تغني الأنشودة في صوتٍ حذب حنون ، ونغماتُ

«البيان» تصاحبها في تناسق جميل ، فيتكئون من أممزاج الصوت

بالعزف وحده تامه ؛ حتى إن السامع ليصعب عليه أن يفرِّقَ

بينهما ، فيخيّل إليه أن «البيان» هو الذي يغني ، أو أن السيدة

نفسها هي مصدر ذلك النغم . تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها !
أى شعور هذا الذى كان يغمرنى فى ذلك الوقت؟ ... شعور
عذب شَمِلَنِى بِاطْمِئنان هادى لطيف .. شعورٌ أثار بين جوانحى
ذكرى محببة لمشاهدَ منزوية حرمتها من قديم ...

وبينما أنا على هذه الحال ، إذ شعرت بالسيدة تلتفت خلفها
مرتاعة . فالتسمتُ — وكان الغسق قد أخذ يشيع فى الحجرة —
فوقعتُ عيني على شيخ بجوار الباب ، يتقدم نحونا . وتبادرتُ
إلى ذمى على الفسور حكاية ذلك الزائر الممقوت الذى يلبس
السواد ، ويقنّع وجهه بنقابٍ حالك ، ذلك الذى اقتحم منزلَ
السيدة فى إحدى الليالى وانتزعَ الطفل الذى تبجّه ويُحبها من بين
أحضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعدْ ... فصرختُ :

كلا ! ... لا تأخذنى ... !

.. وأثيرَ المسكان ، ورأيت عمى يسير نحونا بقماته المدبدة ،
وخطواته المتثاقلة ، عبوسَ الوجه ، يصوبُ إلينا نظراته الحادة ،
وسمعته يقول :

ما معنى هذا ... ؟

وانتزعنى من السيدة ، وأطبقَ يده على يدي بشدة ، وقال لها :
كيف سوّغت لك نفسك أن تستولى على أبناءِ الناس ؟ ...
أنسيتِ من أنتِ ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتُسند يدها عليه ،
وكانت تبدو عليها سمات النُبل والترفع ، وقد استطاعت
في لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها ، وتعيد الهدوء إلى ملامحها
ثم قالت له في صوتٍ شبه طبيعيّ :

كلّاً يا سيدي ، لم أنسَ ولن أنسى من أنا ومن أتم ، وإذا
كانت الأخبار قد ترامت إليك بكل ما هو مخز لي ومزربني
فصدّقها ، ولكنّ هناك شيءٌ واحدٌ أريد أن أوضحه لك في
شأن هذا الغلام ...

فرنّ صوت عمّي قائلاً

عجيبٌ أمرٌ مع هذا الغلام !

... خفف من حدّتك يا سيدي ، فليس أماناً الآن ما يثير
الغضبَ إلى هذا الحدّ ... إن هذا الغلامَ غلامكم ، وليس لي فيه
أى حق ...

— حقّ ؟ ... هذا ما كان ينقصنا !

فابتسمت السيدة ابتسامةً هادئةً ، وقالت في صوت خافض :
ألا يمكننا أن نتفهم الأمر ؟ ... تفضّلْ بالجلوسِ بضع دقائق ،
ولا أطلبك أن تطيلَ !
فقال عمّي :

أفضّل الوقوف ... تكلمني من فضلكِ وأوجيزي !

خلعت السيدة حليةً مستديرةً دقيقةً الصنع تشبه الساعة الصغيرة ، وكانت مدلاةً على صدرها تصلها برفقتها سلسلةٌ ، ثم فتحتها وقدّمتها إليه وهي تقولُ :

انظر في هذه الصورة !

فتناول عسي الحلية : ونظر فيها ثم قال :

واصف ! ... صورة واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوِضحاً . فقالت وهي ما تزال تبسم

ابتسامتها الساكنة :

كلاً يا سيدي ، ليس واصفاً . دقق النظر في الصورة مرة

أخرى ، هناك اختلاف صغيرٌ لا يصح أن يغيبَ عنك ...

— إذن ؟

— هذه الصورة لم تفارق صدري منذ قدته ا... لن أنسى

ما حيدت ليلته الأخيرة معي ؛ تلك الليلة التي قضتها في أحضان

ينظر إلى بعينين محموتين ولا يملك أن يتكلم ... لقد مدّ

الموتُ إليه يده الظالمة فاتزعه من صدري بلا رحمة !

وشعرت بيد عسي تضرب وهي ممسكة بيدي ، ورأيت

يسئل سألته المقتلة ... ومضت السيدة في قولها :

لقد أصبح فقدته جرحاً عميقاً في فؤادي ؛ تور على تأثرته بين

حينٍ وحينٍ ... آه ... شدّ ما كنت سعيدةً به ... شدّ ما كنت

فَنُخَوِّرُ بِهِ ... ١

ورأيتُ عمي يتحرك ، ليعتدِلَ في وِقْفَتِهِ ، ولكنه ظَلَّ صامِتاً
يستمعُ بانتباه . . .

وتابعتِ السيدةُ قولها :

وعند ما حضرتُ إلى حُلوانَ ، لقضاءِ فصلِ الشتاءِ ، سافرتُ
المقاديرُ إلى وِاصِفاً ؛ فكأنما بُعِثَ ابْنِي إلى الحَيَاةِ ... رأيتُه يعودُ
إلىَّ بعدَ طولِ اغْتِرابٍ ا
وسكنتُ ، وقد أُخِضَّتْ وَجْهَهَا في المُنْدِيلِ ؛ وبعدَ حينٍ
مهمتُ قائلَةً :

والآنَ ياسيدي ، ليسَ عندي ما أقوله بعدَ هذا ...

ووقفَ عمي بدورِ بعينه أمامه في حيرةٍ واضطرابٍ ، ولكنه
لم يرفعْ بصرَهُ إليها .

وظلَ كذلكَ وقتاً يحاولُ الكلامَ فلا يستطيعُ ، ثم استدارَ
يخطوُ إلى البابِ ...

الترام رقم ٢

كانت الساعة الثامنة مساءً ، حينما تحرك الترام رقم « ٢ » من محطة « العتبة » ، قاصداً إلى « نادى الألعاب » ، فصعدت فيه فتاة ، واختارت لها جانبا من جوانب العربة استندت إليه ، وانطلقت تمضغ اللاذنين ، وتُجِبل عينها بين الركاب القايلين المتناثرين على المقاعد . . . كانت سافرة ذات وجه نحيف ، ينم عن ذبول وشُحوبٍ على الرغم مما يحمله من طلاءٍ رخيص .

وما إن وقع بصر « التذكري » ، عليها ، حتى عبس ، فتقدم منها وهو يقول :

تذاكر . . .

فلم تُعِنَ الفتاة بقوله ، وطفقت تبسط مُلآءتها الحائلة اللون ثم تجمعها ثانياً ، فظهر ثوبها الأزرق المهلهل ، ذو الوشي المطفاٍ اللمعة . . .

ورفع « التذكري » ، صوته الحشن ، تلبعث منه بوادٍ الشر ، وقال :

تذاكر... تذاكر... تذاكر...!

ووقف أمامها وهو يحدِّجها بنظرة احتقار، فابتسمت له ابتسامة
اختلطَ فيها التذائل بالتملق... كل ذلك في سداجة ظاهرة،
وقالت:

والنبي نازلة في المحطة الثانية...!

كل يوم على هذه الحال... نازلة في المحطة الثانية... والله إن
لم تدفعى، قذفتُ بكِ من العربية...!
— لك حق... انتظر قليلا... ليس عندي نقود صغيرة...
— كلمة واحدة:

إما أن تدفعى، وإما أن تنزلى...!

ودارت عين الفتاة في سرعة بين الجالسين، ثم حطت على شاب
يبدو في أناقة رخيصة، يحمل كتبا مدرسية بين يديه، وكان جالسا
قُبالَتِهَا على المقعد.

مالت عليه الفتاة في تكسر، وقالت وهي تُقرِّع باللادن

فيها:

ألا تفرضنى ستةِ مِليّيات يا افندى؟ ...

فزجَّجِر «التذكِرى»،:

ما هذه الوقاحة؟ ... أتركى الركاب في حالهم...

فقالت، غيرَ ملتفتة إليه:

ما شأنك في ذلك ؟ ... الافندي راض أن يقرضني ثمن
التذكرة ...

وابتسم الشاب ابتسامة رحبية ، وأمال طربوشه قليلا
إلى حاجبه ، وأخرج المليمات الستة ، وناول «التذكري» إياها ،
فأعطاه التذكرة ، وترك المكان ثائرا ، فشيخته الفناة يضحك
استهزاء وتماجن . ثم انكأت على سناد المقعد ، وقد شاعت في
وجهها فرحة الفوز ، وقالت :

مجنون ... والنبي مجنون ...

وسرعان ما اشتبكت مع الشاب في حديث طويل ...

مضت أيام ... وتحرك الترام رقم « ٢ » متجها إلى «القلعة»
وكانت الساعة السابعة مساء حينما عبر جسر «الزمالك» الكبير ،
وأخذ يخرق حتى «بولاق» فبدت الحوائيت والقهوات على
جانبي الطريق في أنوارها المختلفة كأنها ترحب بمقدمه ...

وما إن دنا الترام من محطة «أبي الملاء» ، حتى قفز
«التذكري» منه ، وسرعان ما ابتلعت الزحمة ، ثم رجع بعد هنيهة
يحمل رغيفين يتصاعد منهما الدخان ، متفخين بأرز وأشتات
من لحم . فأعطى للسائق رغيفا ، واستبق الآخر لنفسه ...
وانطلق الترام وتبدد السير ، وانهمك الرجلان فيما بين

أيديهما ، غافلين عن التنازين والصاعدين ... فلم يكن يُسمع إلا صوتُ الزمارة تزعق بصوتها الحاد بين حينٍ وحينٍ ، وحركة الترام وهو يقف ثم يسير ...

والتهم كل من « التذكري » والسائق نصفَ رغيفه ، وشعر « التذكري » بأنه أطالَ وقفته ، وخشى أن يباغته المفتش فترك مكانه ، وتقدم مخترقا الدرجة الأولى ، والرغيف في يده يقضم منه قضماتِهِ المهدودة ... وكان في أثناء ذلك يوزعُ التذاكر ، ويقبضُ النقود ، وينفخُ في زَمَارَتِهِ ، ويصرخ بأعلى صوته ... هذا ، ورائحةُ الرغيف الساخن ، بلحمه وأرزه ، تتقدمه لتداعب أنوف الركاب ...

ودخل : التذكري ، الدرجة الثانية ، فوقعت عيناه على الملاء الناصلة ، وانثوب الأزرق ذى الوشى الشاحب ... فابتسم ابتسامة كأنها تكشيرُ الذئب ، قابلتها الفتاة باستسلام لا يخلو من إهمال ، وقد اتسعتْ طاقتنا أنفِها تستقبلان رائحة الرغيف ...
وصاح « التذكري » في حشرجة ، وفه عتلى :
تذاكرا ...

ووقف الترام هذه اللحظة في محطة « الإسعاف » ، وصعدَ فلاح يحمل خُرْجاً ، واندفع إلى حجرة الدرجة الأولى .
فرماه « التذكري » بنظرة احتقار ، وصاح به :

هنا يا حضرة... هنا...!

وكان «التذكري»، قد اقترب من الفتاة، فقال لها في لهجة حازمة:

تفضلي وانزلي...!

وكانت عينا الفتاة لا تبرحان الرغبة طوال الوقت،
أو بالأحرى ما فضل منه... وانسرح فكرها، إلى ما يحويه من
حشو لذيق، وما يجده آكله من متعة. وهو يقضه لقمة لقمة
في تباطؤ، ويتلع على مهل...

وتنبهت الفتاة على قول «التذكري»، لها:

ألم تسمعي قولي؟... تفضلي وانزلي...!

ولمحت الفتاة وقتئذ الفلاح صاحب الخرج، وقد أخذ
مجلسه على مقربة منها، وأخرج خرقة من جيبه فتحها وانكب
عليها يعد ما فيها من قطع النقود. فابتسمت الفتاة له وهي تتننى
في وقتها، وقالت:

والنبي يا جناب العمدة، كم الساعة؟...

فأمسك «التذكري»، بكتفها المهزولة بشدة، وقال:

دعي الركاب وشأنهم، والزّمي الأدب...!

ورفع الفلاح أنفه عن الخرقة، وتساءل مدهوشاً:

ماذا جرى؟

فقال الفتاة.

والنبي يا جناب العمدة كم الساعة ؟ ...
فخدجها بنظرة حادة ، وقال لها وهو يجمع أطراف خرقته ،
ويلفقها برباطها الطويل :

لا أنا عمدة ، ولا أنا معى ساعة ... ابعدى عنى ... !
وجذبها « التذكري » ناحية السلم ، وهو يقول :
واقه إن لم تنزلى فى المحطة التالية قَدَفْتُ بِكَ من
الترام ! ...

وتشبثت الفتاة بدعامة السلم ، وابتسمت « للتذكري » ، وقالت
فى استعطاف :

أقسم لك سأدفع ...
وتهمل الترام فى إسيره ؛ إذ كان أقبل على محطة « المترو »
ولكن « التذكري » لم يهمل الفتاة ، بل دفع بها والترام ما زال
يخطو ، فسقطت على الطَّوار ، وهى تئن مولولة ... !
وما أسرع أن انعقدت حولها حلقة من المتسائلين والمتفرجين ،
وكثر اللغط ، وتطايرت الشائعات ، وازدحمت الحلقة ، وسمع
الناسُ رجلا يقول بصوت واضح :

سليمة ... سليمة ... !

ورأوا شبح الفتاة بعد هنيهة يستند إلى يد الرجل ، وصاح
أحدُ الباعة الجوالين فى وجه « التذكري » ، قائلاً :

ألا نخجل من إظهار قوتك على بنت ؟ ...
وصاح آخر موجها كلامه إلى الفتاة :
لا بد أن تشكبه للعسكري ... !

ومرت سيده بالجمع المحتشد ، وكانت تسير في مشية منزمتة ،
وظايتها الترام رقم « ٢ » ، فإن تينت الفتاة حتى عرقها ، فتمتمت
في تشفٍّ :

هذا جزاؤها ... !

وصعدت في مقصورة الحريم ...
ووقت الفتاة وهي تنفض عن ملامتها ما خلق بها
من تراب ، ولكنها ما كادت تفعل حتى خذلتها قواها ، فكادت
تهوى ، لولا أن تداركها الرجل الذي أسندها أول مرة ،
وسمعه يقول لها في تحنٍّ :

مالك ؟

فقال في صوت متخاذل :

لم أذوق في يومى كله طعاما ...

وتحرك الترام ، ود التذكيرى ، لم يبرح مكانه من العربة .
وكان واقفا ينظر إلى ما يمر تحت بصره من مشاهد ، ويصنفي
إلى ما يطرُق سمعه من أقوال ، صامتا لا تنبس شفتاه بحرف ،
يقضيم بين وقت وآخر من رغيغه في غير وعسى ... وعندما

سمع قولَ الفتاة للرجل إنها لم تذق طعاما في يومها هذا ، نظر
إلى بقية الرغيف في يده ، ثم أمسك عن الأكل ... ١

* * *

اتتهت نوبة « التذكري » في عمله بالترام رقم « ٢ » فتركه في
« العتبة الخضراء » وسار في شارع « محمد علي » ، ثم انعطف بعد
قليل إلى « حارة المناصرة » ودخل القهوة التي يقضى فيها دائما
أوقات فراغه ، فرمى بنفسه على أحد المقاعد ، وطلب القهوة
وقصبة الطباق .

وانطلق يحسب القهوة ، ويجتذب الدخان على مهمل ، وهو
صامتٌ جياشٌ الفكر :

أيكون قد قسا اليوم على الفتاة بلامسوغ ؟ ... أصابتها جروح
أورضوض ؟ .. ولماذا تركت أن تشكوه إلى الشرطة ؟ ...
ومر بذهنه طيفُ الفتاة وهي تبسم له في سداجة واستعطاف
قائلة :

أقسم لك سأدفع ... فتموجت على فمه شبه ابتسامة ضعيفة ...
وراح يعرض حوادثه معها :

رآها تبسط ملاءتها وتجمعها ، فيظهر ثوبها الأزرق ذو الوشي
الحثاي الضوء . وحدّقَ طويلا في جسمها الرشيق الوديع وعيونها
المملوءة بالكحل ...

وشعريده تهزه ، فاستيقظ ملتفتنا حوله ، فإذا بصديقه «فرغل»
قد اختارَ مقعدا بجواره جلس عليه جلسته المنتفخة ...
وسمعه يقول :

ألا أخبرتني بحكايتك التي جرت لك اليوم ؟ ...

— أية حكاية ١٤ ...

— قيل إنك تشاجرت مع فتاة وقحة من المشرّدات ا ...

— إنها مسألة تافهة ا ...

— وسمعت أيضا أن سيارة الإسعاف أخذتها .

فأمسك «التذكيري» بيد صاحبه ، وقال وقد تعضنت

: جبهته :

أأخذها الإسعاف حقا ؟ ... لا تقل ذلك ا ...

— الواقع أن البنت تستحق ما جرى عليها ... لقد أدبستها

خيرَ تأديب .

ثم أخذ يطلق من حلقه ضحكاتٍ عاليةٍ كريهةٍ ختمها

بسُعالٍ بغيض ا ...

وقدم في هذه الساعة بعضُ الرفاق ، فالتفوا حلقة حول الصديقين

ثم تصايحوا يطلبون «الضامنة» ا ...

* * *

انتهت سهرة «حنق التذكيري» مع زملائه في قبوة «المناصرة»

قراءة منتصف الليل... فسرى إلى مسكنه بجر قدميه المتعبتين ،
وظل في طريقه يُدَمِّمُ ساخطا ، لقد خسر في «الضومنة» فأطال
جلسته ليعوِّض ما فقد ، فتضاعفت خسارته ...

ووصل إلى الدار ، وصعد مسكنه في الطبقة الثانية ، فألقاه
كعادته مظلما صامتا ، تغشاه وحشة قاسية ، فأشعل مصباح
النَّفْط ، ودار به في المكان يبحث عن شيء ، وقد شعر بأن
معدته بدأت تستيقظ متصايحة ... وعثر على قدر الطعام
قابعة في أحد الأركان ، فرفع غطاءها وجعل يتشممها ،
ويتفحص محتوياتها ، ثم وقع بصره على الكأئون المطبقا
منكشا في عبوسه وخموله ... عليه أن يشعله كما يفعل كل
ليلة ، ثم ينتظر طويلا حتى يسخن الطعام ... وما لبث أن رمى
بغطاء القدر وهو يغمغم :

طعام كريبه ... لا يؤكل ! ...

واندفع يسب « أم إبراهيم » التي رضيت - على الرغم من
شيخوختها وضيق وقتها - أن تقوم بما يوفر له أسباب الراحة في
مسكنه ، نظير أجر تافه تقاضاه إياه في كل شهر ...

وخلع « حنفي التذكري » لبوس العمل ، ورمى به على المقعد ،
وارتدى جليابه ، ثم طرح بنفسه على الفراش ...

وبدل أن يطلق عينيه للسكري ، راح يعرض حياة الوأخذة

الممضنة التي يحياها منذُ توفيت زوجته ... فكان يتهد بين قرة
وأخرى ، حتى غلبه النوم ، فانتقل إلى دنيا الأحلام ...

* * *

استيقظ « حنفي التذكري » من نومه ، وجلس على حافة
فراشة يتمطى ، ويشاءب في شكل بشع ، ثم أشرقت على وجهه
رويدا ابتسامة تحولت في سرعة إلى قهقهة صارخة . واندفعت
مخيلته تعرف بدني بجون وطو وهو يستعيد حُلماً شبيهاً به في المنام ...
وقفز من فراشه ، وأخذ يرنو إلى القدر في حنان ... ولم
تمض برهة حتى تأججت النار في الكانون ، وانسلت الغرفة
برائحة الطعام ... وأطلق حنفي ، يده في القدر ، ثم أرسلها إلى
فه ... وتلاحقت حركة يده من القدر إلى فه في سرعة ومهارة ...
ثم تجشأ ، ومسح شاربه طويلاً وأشعل لفاقة ، وقصد إلى النافذة
في خُطوات متكاسلة ، وراح يتطلع أمامه وهو ينفث الدخان
متلعباً ... وحطت عيناه على نافذة في منزل جاره ، تبين له خلفها
شابة مازالت في قيص النوم ، تروح وتغدو في الغرفة مهتمة
بتنظيفها وترتيبها ... ورأها تضع القلة على رف الشباك في مهب
النسيم ...

وترك حنفي ، النافذة ، ثم نظر إلى ساعته ، وما عثم
أن قفز إلى ركن ملبسه ، فأخذ يرتدي لبوس عمله في عجلة .

وهرول نحو الباب ، وما كاد يتغذ منه حتى رأى دأماً إبراهيم ،
مقبلة عليه تقول :

صباح الخير ياسى حنفى ا... ا...

فخدجها بنظرة حادّة ، وأجاب :

صباح الشر يا أم إبراهيم ا

— شر ؟ ... باسم الله الحفيظ ا...

— شر ... طبعاً شر ، خدمة سيئة ، وحال كريبه لا يطاق .

— لم أسمعك تقول هذا من قبل ... ماذا جد علينا ... ؟

— حتى القلة لا تعرفين أن تضعيها على الشباك لتبرد ... ا

— ألم تحرّج على أن أفعل ذلك منذ أن وقع الإبريق الفخار

على رأس الافندى فى الحارة ؟ ...

— دائماً تنسين إلى مالم أقل لكسلك وغباوتك ا...

ولس فى هذه اللحظة صدره ، فوجد زراً مقطوعاً من أزرار

كسوته ، فزجر :

هذه ملابسى ممزقة مهملة ... حال لا يطاق ... هذه آخر

مرة تطنين فيها عتبه غرقى ... أسامعة ؟ .. آخر مرة ...

وأقل البسبب بعنف ، وانحدر على السلم يقفز قفزا ، وهو

يرغى ويزيد ...

تسلم « حنى » عمله ذلك اليوم في الترام رقم ٨ ، ومضى الوقت
والعربة في جيته وذهب بين « العتبة » و « شبرا » ، وهو في غُدُوْثٍ
ورَوَّاحٍ بين الدرجة الأولى والثانية وموقف السائق ... وفي
يده لوح الخشب المرصوطة عليه دقاز التذاكر المختلفة ، يدق
عليه بقلبه الغليظ ، ويصيح :
تذاكر ... تذاكر ...

واستند « حنى » مرة إلى إحدى دعامات العربة ، وكان
الترام قد توغل في ضواحي « شبرا » ، وأخذ الرجل يسرح بصره
فيما حوله من حقول خضرٍ يحملُ شذاها إليه نسيمٌ هادى وديع ،
ثم أطلق لفكره العنان ، وإذا به يسائل نفسه :
أحقا أن الإسعاف أخذها ... ؟

* * *

مرت بضعة أيام عمل « حنى » ، أثناءها في خطوط مختلفة ،
ثم عاد ثانيا إلى الترام رقم ٢ ...
كانت الساعة العاشرة مساء حينها لمح « التذكري » الملاية الناصلة
مستندةً إلى إحدى دعامات العربة ، وكان إذ ذاك يحاسب أحد
الركاب ، فأحس النقود تتخلج في يده ...
ولمحة الفتاة ، فأكفه وجهها ، وتقدم هو منها ، متبرما صارخا .
فلم يسع الفتاة إلا أن تندفع نحو السلم تريد أن تقفز إلى الأرض ،

ولكن ما كادت قدماها تقتربان من الدرج حتى وجدت يد
التذكري ، تشدها ، وإذا به يصيح :

أجنونة أنت ؟ ... اصبري حتى يقف الترام في المحطة ...
وعادت الفتاة إلى مكانها وهي تقول :

أشكر لك هذه الرقة ... !

فانفجر « التذكري » ، يقول :

أنت لا تنفع معك رقة ولا شدة ، مالك وللترام وركابه ...
أبينى وبينك نار حتى تنغص على عيشي ؟ ...

وتدخل أحد الحاضرين ، فأخذ « التذكري » ، يهص حادثة
سقوط الفتاة من الترام ، وحضور الإسعاف لأخذها ... فقال
الرجل « للتذكري » :

لماذا لم تأخذها إلى الشرطة ؟ ..

— فكرة صائبة ، فلأخذها إلى الشرطة ، لآتهى من مشكلتها ...

وذهب « حنفي » ، يتم دورته في الترام وما إن انتهى من قطع
التذاكر للركاب . حتى قصد في سكون إلى ركن من أركان العرب ،
وقد علا وجهه سباب التفكير .

وبدأ الترام يتريث في سيره ؛ لاقترابه من المحطة ، وقفز إليه
المفتش بغتة ؛ وشرع يستطلع أذاكر الركاب ، وقصد « حنفي » ، إلى
الفتاة في هدوء ، ودس في يدها تذكرة ، ثم استأنف سيره ؛

كان لم يفعل شيئا...!

وأتم الترام شوطه إلى «القلعة»، وبدأ شوطا جديدا إلى «نادى الالاماب»، والفتاة في مكانها مستندة إلى دعامة العربية، تختلس النظر إلى «التذكري»، وتساءل نفسها: لماذا لم يأخذها إلى دار الشرطة؟... أو على الأقل: لماذا لم يسلمها إلى أحد المساكين؟...

أما الرجل، فكان إذا أتم عمله، مضى إلى ركنه، واستغرق في تفكيره...!

ورأته الفتاة يقترب منها، فابتسمت في وداعة، وأسرعت قائلة:

سأزول في المحطة التالية...

فلم يجيبها، بل وقف بجوارها مستندا إلى إحدى دعائم الترام، ولزم الصمت وقتا. ثم سمعته يقول كأنه يتحدث نفسه: أين تسكنين؟...

— لم تسألني هذا السؤال؟... أتريد أن تبلغ أمري إلى الشرطة؟...

— أليس لك أهل؟...

— أنا وحيدة في هذه الدنيا...!

وطاودهما الصمت... وترك «التذكري»، موقفه ومضى

إلى الركاب الجدِّدِ يقطع لهم التذاكر ، ثم رجع إلى مكانه بجوار الفتاة . فقالت له :

عملكم في الترام شاق ... أليس كذلك ؟ ...

— من الصباح إلى المساء ونحن لا تهدأ لنا حركة ، لقد حفيت

أقدامنا من طول المشى والوقوف ...

— كان الله في عونكم ...

— ألا يعذر المرء بعد هذا إذا ضاقت أخلاقه وفار دمه ؟ ..

— بالطبع ...

— وإذا عاد الواحد منا بعد كل هذا إلى داره ، ولا يحمد فيها

لقمة طيبة ، ولا فراشا مرتبا ، فإذا يكون حاله ؟ ...

— أين تسكن ؟ ...

— في المناصرة ...

— مع أهلك ؟ ...

— وحدي ... لا زوجة ولا ولد ..

وصعد الترام ركاباً جدد ، فانتقل حنفي ، من مكانه ، وعُني

بقطع التذاكر . وكثر العمل عليه ، فظل وقتنا طويلا ينتقل في

الترام ، ويده تتحرك كالآلة من المحفظة ، إلى لوح التذاكر ،

إلى أيدي الركاب ... وبين فترة وأخرى تنطلق من الزمارة

صرخة عالية ، فلا تدري أصرخة استغاثة هي أم زفرة مكدود ؟

وكانت عينا الفتاة طوال الوقت تتبعانه أينما تحرك...
وما كاد الترام يقترب من محطة «أبي الملاء»، حتى قفز
«حنى»، إلى الأرض، وأخذ يركض صوب دكان من دكاكين
الحى... وعاد بهـد قليل يحمل رغيفا ساخنا محشواً بالأرز
واللحم... وصعد العربة ومر بالفتاة، فناولها الرغيفَ في
سكون...!

ونظرت إليه متعجبة، ولكنه تابع سيره، وانطلق يقطع
التذاكر...

وتلاقت نظراتهما..

وابتسما...!

* * *

انتهى عمل «التذكري»، في الترام، فلم محفظة في العتبة،
وسار في شارع «محمد علي»، ووجهته حارة «المناصرة»
وأحس دافعا يحفزه إلى الالتفات خلفه، ففعل... ثم واصل
سيره، وقد لاحت على وجهه ابتسامة مشرقة..!
ودخل حارة «المناصرة»... وهو يُرهِف السمع إلى خفق
قدمين تتبعانه...!

ولما مر بالقهوة المعبودة، حثَّ خُطاه، فلم يره أحد...
ودنا أخيراً من مسكنه...
ووقف بجوار الباب ينتظر...!

البومة تنعق

لا أدري لماذا عملت بنصيحة هؤلاء الأطباء الأغبيا ، وجئت هنا في الريف ، كنت أحسنُ حالا حينما كنتُ في مصر . لقد أكدوا لي أن بضعةَ أيامٍ أقضيها في الضيعة كافية لأن تعيد إليّ صحتي ، فالذي أشكو منه ليس إلاّ ضعفا عصبيا نتيجة للحمى الشديدة التي انتسباني وكادت تقضى عليّ ؛ فالراحة ، والرياضة الهينة في الشمس والهواء الطلق ، والغذاء الصحي ؛ — علاجي الوحيد... هذيان... هذيان... من أين لي بالراحة وهذه البومة تنعق بجوار نافذتي ؟ ... لم أسمع للبومة قبل اليوم صوتا في هذه البشاعة... إني أرتجف عند سماعي لها وهي تلحُ في نعيها كأنها تعلن للناس خبرَ كارثةٍ عليّ وشك الوقوع... عملت المستحيل لأنحسبها بعيداً عن مسمعي فلم أفلح... إنها رابضة فوق رأسي رُبوض الفناء فوق رأس المختَضِرِ ..

والهواء الطلق أين هو ؟ ... لقد مررت — وأنا أت بالعربة من المحطة إلى الدار — على بركٍ ومناقع مملأى بالجحيف المتفخخة

تتصاعد منها أبخرة حارة كريهة ... لن أنسى مطلقا منظر إحداهما ..
كانت جثة طافية على سطح الماء ... أنكون حقا جثة
لحيوان ؟ ... إنها شديدة الشبه بامرأة حبلٍ منفتحة السيقان ؛
امرأة بلا رأس ... أشعر بضيق تنفسي ... يخيل إلى أن حول
الدار جيفا شبيهة بتلك ... متراصة بعضها فوق بعض ، تحيط بها
وتحاصر ها ... ما أقبح رائحتها ؟ ...

نبضى مائة في الدقيقة ... سأحاول تهدئة نفسي ... ولكن
النبض يتزايد ، وأخشى أن يقف قلبي دفعة واحدة ... لقد
حدّثوني حينما كنت صغيرا أن أبى مات فجأة وهو يصلي ... كنت
إذذاك في الرابعة من عمري ، ولا أذكره إلا في ساعتَه
الأخيرة ... رأيتُه محمولا وكان وجهه ممتعا وأمي خلفه تبكي
وتصرخ ... فما إن وقع بصرى على هذا المنظر حتى هربت ...
جريتُ وأنا ارتعش ، وارتيمتُ في أحضان مرضيتي وأنا أخفي
وجهي في صدرها وأشوق ...

البومة ما زالت تنعق في إصرار عجيب ... إنها تقطع على
سلسلة أفكارى ... ألا يوجد في الدار بندقية تقضى على ما تبقى في
حياة هذه البومة من أيام ؟ ...

الأيام مجدة في السير ، وحالي تزداد سوءا ... أصبحت أخلاقي
لا نطاق ، وتصرفاتي عجيبية إلى درجة الشذوذ ... بهذا سمعهم

يهمسون ... لا أنكر أني أكلف زوجتي بعض الأحيان أموراً مرهقة؛ أقول بعض الأحيان . لا على الدوام . . ولكن علام التذمر؟ ... إنها زوجتي ويجب أن تشاطرنى آلامى ... أتريد منى أن أقضى الليل وحيداً أتقلب على فراشى وليس بجانبى أحد يسهر على راحتى؟ ... لى أكره الظلام ولا أستطيع النوم والمصباح منطفأ ... أريدها دائماً بجوارى فإذا شعرت بالوحدة مدت يدي أتمسبها ... أنا لست خائفاً ... إنه لشيء مضحك مخجل أن أفكر فى هذا ... مم أخاف؟ ... لا شيء فى العالم يخيفنى ... ومع ذلك أنا أرتعش ...!

لم يغمض جفنى بعد ... المكان هادىء ... ولكنه هدوء يقلبنى ... أهنالك أنفاس أخرى تردد فى الغرفة غير أنفاس زوجتى؟ ... هذا ما لا أستطيع أن أجزم به ... أحس أن هنالك أصواتاً كالهمس ... كفحيح الشعابىن ... لا يبعد أن يكون فى الحجره شعابىن فى هذا الوقت ... أو هنالك كائنات غير منظورة تسبّح فى جوّ المكان ... كائنات لها أجنحة كالخفافيش ...!

لقد هزّزتُ زوجتى هزاً عنيفاً حتى استيقظتُ ... شدة ما كانت بليدة فى نومها ... وقضينا وقتاً طويلاً ونحن نبحث تحت السرير والمقاعد ... وفى جميع الأركان ... لقد قلبنا الأثاث كله

رأساً على عتب ... ثم ارتأت زوجتي أن تطلق البخور
لتطرد الأرواح الشريرة ، فضحكت من فعلتها وأنا أعيرها
بالجهل ا ...

* * *

كيف يجوز للشعراء المجانين أن يتغنوا بجمال الريف ؟ ...
أين هذا الجمال ؟ ... إنى أبحث عن جزء ضئيل منه منذ قدمي
هذا المكان فلا أجد شيئاً ... الخراب يحيط بي من كل جانب ...
مضى على الآن ما يقرب من الساعة وأنا بمدد في الشرفة . إن
ضوء الشمس لا يطاق ... أشعر كأن بصري يفقد من قوته ،
فأضطر إلى إغماض جفني ... أسمع منذ لحظة طائراً يصفق بجناحيه
ولكني لا أراه ... أئمة طائر محبوس يحاول الخروج فلا
يقدر ؟ ... تصفيق أجنحته مستمر ... أشعر بمحاولاته
المقيمة للفرار من محبسه ... إنه يثير أعصابي بهذه الحركة
الدائبة ا ...

الخدوم يؤكد لي أنه ليس ثمة طائر محبوس في المنزل ... كلهم
يؤكدون لي ذلك أيضاً ... ولكني مازلت أسمع أجنحة تصفق ...
يا لله ا ... أكاد أختق ... يخيل لي أن الطائر قريب مني جداً ...
أ يكون مختبئاً في ملابسى ؟ .. إن جزءه جلبابي الذي فوق صدرى
يتحرك حركة غير عادية .. إنه قلبي ... ينبض مائةً وثلاثين

نبضة في الدقيقة ... ظهرت البومة في هذه اللحظة ووقفت على حاجز الشرفة ... إنها لجرأة غريبة منها... لقد بدأت تصوت وهي ترمقني بنظرها الثابت الحاد. إن نظراتها أشد قسوة من صوتها... وأشعر كأنها تحترق شغاف قلبي، وتكشف عن أسرارى ... وهذه الابسامة الكريمة المرتسمة على مقارها الأعقف؛ إنها تسخر مني ... أف! ... لم أكره في حياتي شيئا كرهى لهذه البومة ... لقد أخذت حجرا كان في متناول يدي، وشرطان ماقدفتها به، ولكني أخطأت الرمى نظارت إلى شجرة ليست بعيدة عني، وعادت إلى تحديقها الساخر ونسيقها المفرع ... لا يتسنى لي احتمال هذا ... سأتى بيندقية ولو كلفني ثمنها أن أنزل عن كل مامعى ... إن نبضى يكاد يكون عاديا ... لقد هبط من مائة وثلاثين إلى ثمانين ...

أتراي قد ظلمت هذه السيدة التي أدعوها زوجتي بإحضارها معي إلى الريف؟ ... ليس لها أى متعة في هذا المكان الخرب الموحش ... إنها لا تتدمر ولكن وجهها ينطق بالشكاية الصامتة: ومع ذلك تراها مستسلية تبالغ في تدليلي وتمريضي ... مسكينة هذه المخلوقة ... ربما صارت أرملة عن قريب ... أرملة؟ ... لا أدري لماذا نطقت بهذه الكلمة؟ ... وأى

وحى أوحاها إلى ؟ ... ولكن لِمَ تكون مسكينة وهى أرملة ؟
أليس فى موتى راحةٌ وسعادةٌ لها ؟ ...

ما أكبر الانقلاب الذى اعترافا . ما زلتُ أذكر يوم رأيتها
أول مرة ... كانت أمام دارها تتحدث وتهاجن مع رُفقة من
صُويجاتها ، ولم تكن قد تعدت السادسة عشرة - وكنت قد
أثبتُ فى زيارة لآبيها . وتقدمتُ إلى وابتسامه الشاب المملوءة
حياةً وآمالاً تلتصع على وجهها . وذهبتُ فى إلى أحيث كان
والدها وبادلتها بعض الكلمات ؛ - كلمات غاية فى السخافة ؛
ولكنها كانت بدبعة رائمة عندى ، جعلتُ أستعيدها طول
اليوم ... وبعد عامين من هذا التاريخ زُقتُ هذه الفتاة إلى ...
وها قد مضت عشرة أعوام على زواجى منها ... عشرة أعوام
عشتها كبقية الناس . أو بالأحرى كبقية هذه الدواب الأدمية
التي تسير فى القطيع مطأطئة الرأس ذليلة ، والآن أتلفتُ
حولى فأجدُ زهرة الأمس الناضرة المشرقة أصبحتُ عودًا
جافًا مشققًا يهشم على مهل . يا للافصرار الذى يعلو الآن
وجتتها ... يا لهذه الابتسامه الفظيعة التي تلفظها شفتاها ، إنها
ابتسامه كريهة لا أستطيع النظر إليها ... أنكفى عشرة
أعوام لتحويل هذه الصبية البضرة إلى عجوز ينتظرها القبر بفارغ
الصبر ... أأكون أنا المستول عن كل هذا ؟ .. يا إلهى ! ...

إني لا أشعر بعطفٍ عظيمٍ نحوها ... إني أحياها في تمجيدٍ وتعظيمٍ
كبطلةٍ من أبطال الإنسانية ... ولكن لمَ كل هذا ؟ ...
وأنا ؟ ... ألسْتُ أستحقُّ من نفسي قبل كل شيء هذا العطف
وهذا التمجيد ؟ ... أما الذي احتمل هذه الحياة السخيفة المضمينة
في هذه الدنيا الموبوءة المجدبة ...

* * *

إنها ليلةٌ كريمة لا أستطيع أن أغمض فيها عيني لحظةً .
لقد أمضيتُ قبلها ثلاثَ ليالٍ متوالياتٍ وأنا قلقٌ ، أتقلبُ على
فراشي والنوم بعيدٌ عني ، وفي القاهرة قضيتُ أيضاً لياليَ بأسرها
وعيناي مفتوحتان أدورُ بهما في الظلام أطلب الهدوءَ لروحي
والراحةَ لجسمي ، ولكن هيات ! ... أما هذه الليلة فينخيل لي أنها
أشدُّ لياليِّ هوًلاً : نور المصباح ضعيفٌ وزجاجته كدر .. لا بد
أن نستبدل به آخر أكبرَ وأنظفَ .. بدأتِ اليومَةُ تَنعَقُ ...
ولكن الحفيرَ نَعَدَ إرادتي ، فما جعلها بطلقةً أرَدْتُها قتيلةً ... أشعر
بشيءٍ من الراحة ... لقد مرَّتْ ساعتانِ على قتلها ، فازداد الليلُ
صمتاً وكآبةً ... أشعرُ بمحنينٍ غريبٍ لسماعِ صوتها ... وكما
فكرتُ فيها ... وهي الآن ملقاةٌ تحت نافذتي وعيناها مفتوحتان ...
أحس برودةً في بدني ... متى يلقونَها بعيداً عن المنزل ؟ ... لقد
اضطرت إلى أن أضيفَ لحاماً آخر فوق غِطائي .. أأكون محموماً

أم بدأ جو الليل يبرد؟ ...

قضيتُ اليومَ كله وأنا منتظر ما فعله الخادم بالبومة ...
ها قد حضر... لقد أذعن لما طلبته منه... أحضرها لي محنطة وقد
وقفها على حاجز الشرفة وثبتها عليه... لم يُفقدْها الموت شيئاً ...
ينجّل إلى أمها على وشك الصياح ... سأعمل لها صندوقاً من
الزجاج ، وسأحفظها دائماً عندي ... لقد أمرتُ الخادم أن
يأخذها ويضعها في خزانة نظيفة ويضعها في مكان مأمون...
لا أريد أن تأكلها القِططة أو تشربها الفيران ...

الليل بدأ يسحب رداءه الثقيل على القرية... أسمع أصوات بعض
الفلاحين وهم يتشاحنون... ثم أذان المغرب... ثم كان صمت ...
صمت ... صمت ... أكاد أجنّ من هذا السكون ... إلا توجد
ضفادعٌ أو صراصيرٌ تبعث في هذا الجو الميت شيئاً من الحركة؟ ...
فطبع أن يقضى الإنسان الحى أيامه في غياهب هذا المكان؛
كما تقضى الجنة الهامدة أيامها في غياهب القبر ...

لقد طلبتُ البومة فأحضرها لي ، ووضعوها في ركن من
أركانِ الغرفة ... إنها مستقرة بهدوء في خزانة كطفل نائم
مستقرٌ في لفائفه يجلس أحلامه الذهبية ... زوجتي تقول إن
رائحتها لا تطاق ... ولكنني على العكس أستطيب هذه الرائحة ...
أشعر بهدوء غريب يشملي ، ورغبةً مُلحة في النوم ...

أستطيع أن أقرر أنى أهدأ حالا من ذى قبل ... قضيتُ
الساعاتِ الطوالَ صامتا أفكر ... فى أى شىء ؟ ... فى مصابِرِ
الناسِ وأحوالِ هذا الوجودِ العجيب ... أهناك فرق كبير بين
أعظم رجل فى العالم وبين هذه البومة المكفنة فى لفائفها ؟ ...
منذ أيام أردت أن أصلى ، وما إن بدأت قراءة الفاتحة حتى مرت
بخطارى صورة أبى ، وهو مطروح بلا حراك على سجادةٍ
الصلاة فلم أستطع إتمام صلاتى ... واليوم صليتُ صلاةً طويلةً
والطمأنينةُ تغمر نفسى ... أشعر بأنى قد اتصلتُ بالله وقد
استغفرتُه لكثير من خطاياى ...

اليوم وأنا أقلب أشياء عثرتُ على « الزجاجة الصفراء
الصغيرة » ... كيف ؟ ... من وضعها فى الحقيبة قبل سفرى إلى
الريف ؟ ... إنها ملفوفة فى عناية غريبة ... لا يستطيع أحد أن
يلف القوارير هذا اللف المحكم غيرى ... إننى أطيل فيها النظر ...
لقد هُزرتُ إلى زوجتى أريد أن أسألها عن وضع هذه الزجاجة فى
حقيبتى ... ولكنى ما كدت أفتح فى حتى أطبقته ثانيا ، وعدتُ
أدراجى إلى حجرتى وأنا صامت أفكر ...
أحكمتُ إقفالَ البابِ ووضعتُ الزجاجة على المائدةِ بالقرب

من البومة المحنطة، واعتمدت برأسي على يدي، وأطلقت
العنان لخواطري...!

لقد أكلت الظهرَ بشيةٍ أدهشت زوجتي... وكنتُ فرحاً
أحدثها بمختلف الأحاديث، وأماجِنُها بفكاهاتٍ ونوادرٍ...
يحق لها أن تعجبَ من كل هذا... إنها تستبشرُ وتقول:
إن صحتي تتقدمُ في اطراد...!

وقبل المغرب بقليل حمل الخادمُ الكلبَ، الذي أوصيته
باختياره... كلبٌ قد نهكته الشيخوخة وطحنه المرض... جسمه
متآكلٌ كأنه مصابٌ بجرَبٍ... ولا شعرٌ يغطى جلده
المشقق.

أف لهذه الجيفة المتحركة... إنه مطروحٌ أماي يتنفس في جهنمٍ،
ولكنه يرفع رأسه ويشم الهواءَ ويحاولُ أن ييصبصَ بذيبه،
وعيناه الكدرتانِ المطبقِ نصفاهما تستجديانِ شيئاً...
ما هو؟... أيكون طعاماً يشبع معدته الخاوية. أم دواءٌ يخفف من
آلامه المبرحة؟... إذا قدر لهذا الحيوان أن ينطقَ فماذا
يجيب لو سألته عن الموت؟... وهل يفضلُه على حياته
هذه؟...

كنت أريد أن أوثقَ أقدامه، ولكنه من الضعف بحيث لا
يستطيع المقاومة، فضلاً على أنه مطمئنٌ لوجودي، ينظر إلى

دائما بهاتين العينين المستجديتين ... صبرا يا صديق ... ولكن
لا تعبنى بهذا الاستجداء الممض ... لقد فتحتُ ، الزجاجية
الصفراء ، فتصاعدتُ منها رائحة قوية كرائحة السوائل الكاوية ...
إن صديقي الصيدلي الذي سرقتُ منه هذا السائل لم يحدثنى كثيرا
عنه ... لا يهم ... إنى أذكر حقا قوله لى : إن نقطتين تكفيان
لذلك أكبر صرح حتى في الوجود ...

لقد سكبْتُ على لسانه نقطة واحدة ... واحدة فقط ، فإذا
بذلك اللسان الناحل يحترق ثم تملوه طبقة كالغمام أو كالابخرة
كأنه يحترق .. لقد أطبق الحيوانُ فيه ... أو في الحق ساعدته على
إطباقه ... ثم وضع رأسه على الأرض ... تنفسه يبطله بالتدرج
ويضعف ، ولاشكاية من ألم ولا أتين ... إنه يفتنى في هدوء
غريب ... وفي سهولة لم أكن أتوقعها ... يخيل لى أنه يتسم ...

لماذا لا يبجحون للإنسان أن يتصرف في حياته كما
يشتهى ؟ ... ولماذا لا يساعدونه على ذلك ؟ ... أليس من العدل
مثلا أن تقام أندية شعبة تخصص للاتجار ؟ ... أندية تحوى
الغرف الوثيرة الرياش ذوات الألوان المختلفة ، يقصدها من
يرغب في القضاء على نفسه بالوسائل التي يختارها ، وفي الجو الذي
يطلبه ، ولم لا تمنح الحكومات الجوائز المالية الضخمة للمكتشفين

الذين يقدمون لها الاجهزة والعقاقير التي تعمل على إطلاق
الأرواح من محابسها ؟ ...
اليوم وأنا جالس في الشُرقة - وغير بعيدة عن البومة
المخنطة - لاحظت أن يدي ترتعش ... لم يكن ذلك وهماً ...
إن قَدَحَ القهوة كاد يسقط مني ، وكادت القهوة تندلقُ على ثيابي ...
هذه ظاهرة جديدة لم أحسَّها من قبلُ ! ...

في رغبة ملحة في الصمت وفي التفكير ، لقد أمرتهم ألا يقربوني
وأفضيت اليوم كله وأنا كالتثال أحْدَقُ في الأفق البعيد ، وأناجي
بين وقت ووقت بومتي المخنطة ، وأستلهم منها وحى أفكارى ، ولما
بدأ الليل برخى ستاره قامت بي رغبة مستعرة لأن أزورَ
المستنقعات ... هنالك وقفت طويلاً أمام الجيِّفِ
المبعثرة ... إن الكلاب تتألبُ عليها وتفنيها في سرعة غريبة ،
ولكن لا يـلوحُ الصباح حتى يأتي الجديد منها ... هناك
حركة مستمرة على ضفاف هذه المستنقعات ؛ - حركة نشيطة
حقاً ...

أى دنيا هذه التي نعيش فيها ؟ ... إنها لتعيدة الشبه بهذه
المستنقعات الملائى بالجيِّفِ والكلاب ! ...
والعجب أن أرى أناساً يتكالبون عليها ... يا لكساكين ! ...
لقد خلا المنزل من جميع قاطنيه ، ولم يبق فيه سوى وبومتي

المحسطة ، إنها مثبتة على المائدة تمدق فيها بعيونها الفارغة ... إنها فارغة ولكنها عميقة ملأى بالأمرار ...

الجميع ذهبوا لحضور عرس ابنة العمدة ... ولقد شجعت زوجتي على الذهاب ... لقد أصبحت مطمئنة على ... المكان ساكن سكونا رائعا ، والليل الذي تنوالى هجساته على في عنف لا يُسمع فيه غير أصوات بعيدة ... بعيدة جدا ... أريد أن أحس الظلام يلفني ببياءته السحرية . أريد أن أحس راحة تنفذ إلى شغاف قلبي ... الظلام ... إنه القوة الحقيقية المسيطرة على هذا الوجود ، ولكن أي شيء يسكن خلف هذا الظلام ؟ ... هناك عوالم أخرى مجهولة تتطلب دأمارا وادا ليكتشفوها ...

نقطتان فقط ... لا أكثر من نقطتين ... أريد أن أتمدد على الفراش بحيث يكون وجهي مقابلا لوجه ... البومة إنها آخر شيء أربغب أن يقع عليه نظري .

تلك هي أول نقطة أضعها على لسانى ... طعمه ليس كريها هذا السائل ... كالخمر المسقة ... بل أقوى من الخمر المعتقة ... أشعر بجسمي كأن النار قد بدأت تشب فيه ...

تلك هي النقطة الثانية ... إنى لأرى الأبخرة التي كانت تتصاعد من لسان الكلب الأجرب تتصاعد من جسمي كله ، كاتي ساج

وسط الغمام ... إني أحترق ... ولكن في هدوءٍ غريب ...
هدوءٍ لذيذ ... ما زلتُ أرى البومة وحدها أو بالأحرى عينيها
الفارغتين ... ها قد أصبحتُ يا صديقتي رائداً من جملة الرواد
العظماء ...

الدنيا الجديدة تنتظر قدومي ... الدنيا الجديدة بكنوزها العظيمة ...
بعضى يضعف ... العيوسُ تتكاثف ...

ليلة العرس

كانت مبهجة على غير مالوف عادتها ، فصفت شعرها ،
وتزينت على قدر ماتسمح به حالها ، لم يعقها عن ذلك خمارها
المهائل ، ولا جلبابها البالي .

وخرجت أمام الدار ، والابتسامة تلوح على ثغرها ،
وجلست على الأرض بجوار المصطبة ... لم تجرؤ أن تعتليا ،
وتستمتع بملبس حصيرها اللامع ، المبسوط على سطحها ، وهل
تنسى يوم خرج إخوتها وأخواتها لآبيها ، وانطلقوا يلعبون على
هذه المصطبة ، فلما تقدمت للسب معهم ، رنت في صحن الدار
صيحة زوج أبيها ، تلك الصيحة المملأ بالحقد والكراهية ، ثم
رأت شبح أبيها نفسه على الباب ، وهو يلوح لها بعصاه الغليظة ...
منذ ذلك اليوم لم تفكر أن تقرب المصطبة ، حتى في هذا اليوم الذي
خلت فيه الدار من ساكنيها ... !

لقد جمع الأب وزوجه وأولادها ، وذهب الجمع إلى البلدة
يشهدون الاحتفال بزواج ابن العمدة .. أما هي فقد أمرت الأ
تبرح الدار ، لتعبد البهائم والطيور. ... !

وهى على الرغم من كل هذا ليست مبتئسة ولا حزينّة ...
لإنها وحدها لا يضايقها أحد ... أليس هذا كسبا طيبًا
لها؟ ... لا نكايّة ولا استفزاز من بنى أبيها ... ولا اتهار ولا
إيذاء من الأب وزوجه ... هى وحيدة تستطيع أن تبسم
وتضحك فى أمن وطمأنينة ... بل فى مقدورها أن تفعل أكثر
من الضحك والابتسام ... ترقص أو تُغنى إذا حلا لها الرقص
أو الغناء ... ١

إن البلدة التى بها دارُ العمدة ليست نائية عن بيت أبيها ، فهى
تسمع صوت الطبل المبهج ، وتغتم المزمّار الشجى ، مختلطا
بالتهايل والأغريد ، يحملها إليها نسيم الأصيل ... وإنها
لترنو نحو البلدة ، فتحتشد فى مخيلتها مناظر شتى مما يكون
فى الأعراس ... جماهير مودحة ... هرج ومرج ...
مواد تزخر بأطيب الطعام ... ثم هذه الأنوار ؛ أنوار المصابيح
الكبيرة ذوات الشعاع الأبيض الذى يهز الأبرار ... ١
كانت تنو إلى البلدة راضية مسرورة ، وهى ترتب بين
الحين والحين شعرها . وتسمى جليباها ، ثم تصغى ... وتصغى ...
ولا تفتأ تصغى ... ١

لقد أخذت الظلّة تنبسط على القرى بأسرها ، وراح النسيم
اللطيف يُنقلب هوا رطبًا باردًا ، فلم تقادر الفتاة مكانها ...

بل اكتفت بأن جمعت ثوبها عليها ، وانكششت بجوار الحائط ،
وهي مازالت راتية نحو البلدة ، تسمع أصوات العرس من بعيد ،
وتصور لنفسها حفلة الزفاف ...

إن للعمدة ابنا ثانيا ، يكبرها بضع سنين ، وسيم الطلعة ،
يحمل طابع الرجولة ... وفي مرات متعددة رأته وهو ذاهب إلى
المدرسة في « البندر » ، يضحج بالصياح والضحك ، على حمارة
الرشيق ، وخلفه غلام يحمل له الكتب . فكان في كل مرة
تقابلة فيها ، يلفتت إليها ويتسم ، فتجيبه على ابتسامته بمثلها ..
سوف يُنسبى هذا الفتى الأنيق دراسته ، ويتقدم منصبه
الكبير في البندر ، ثم لا يلبث أن يحضر إلى أبيها ويخطبها عروسا
له ، ويدفع لها مهورا غاليا لم يدفعه ابن عمدة لعذراء قلبها ...
فإذا ما عرض عليه الأب أن يختار عروسة من بناته الأخريات ،
أصر الفتى على رأيه الأول ، ولم يُجد احتجاج زوج الأب شيئا ...
ويأتي العمدة نفسه . ويغمر المنزل بالهدايا . ثم تحل وشيكا
ليلة العرس بطلبها وزمرها ... بأغار يدها وطلاقها النارية . . بأنوارها
الوهاجة التي تعشى الأبصار .. بالحناء تخضب بها يديها وقدميها ..
بالموسيقى تتقدم هو دجها ، وهي تنصت لممس الجوع حولها :
« ما أبهى العروس في ثوبها الأحمر الموشى ! ... » ، بزوجها وهو
يتقدم الركب ، ويختلس إليها النظرَ بين لحظة وأخرى ! ...

وهكذا مضت الفتاة تبصّحُ مناظر المستقبل حتى ثقلتُ
أجفانها واحتواها سباتٌ عميقٌ...!

* * *

عاد أفراد الأسرة من العرس يحملون ألوانَ الخلوى، ملفوفة
في ورق مفضّض، فظلوها يأكلونَ ويرمونَ الفتاة بالورقِ ،
فتجمعه وتبقيه في يدها .. وانطلقَ الأطفالُ يتحدثون ، كلُّ فردٍ
يروى حكايته عن العرس ، والفتاةُ ملقيةٌ بالها إلى كل ما يقال...
وما إن أتوا حديثهم ، حتى صاح أحدُهم يقول :
وأنتِ ؟ ... أليس عندك ما تروينه ؟ ...
فنشطتُ لامعة العين خافقة القلب ، تقول :
نعم عندي حكاية جميلة ، عن عرس كبير ...
— حكاية عن عرس كبير ؟ ... ما هي ؟
— هي ... هي ...

ووجدت الكلمات تتعثرُ بغتة على لسانها... وتزايلت ابتسامتها ،
ولم تنطق بحرف .

فثار الأطفالُ يضحكون ...!

* * *

وذهب كل يتفقد مرقدّه ، وقصدتُ هي إلى ركنها المعبود ،
عن كتب من الجاموسة ، وألقتُ بنفسها على كومةِ الهشيم .

ولما استبد النوم بأهل الدار، أخرجت الفتاة من الهشيم عروسها
إلى البالية المحشورة بالقطن، وأجلستها قُبالتها، واندفعت تروى لها
في حارس وتنمق قصتها الكبرى؛ قصة عرسها...
ورفعت الجاموسة رأسها وعيناها تلتصقان؟... ثم ما لبثت أن
مسحت نفها اللامع بلسانها الشُعْباني، وأطلقت خواراً هادئاً يحيي
به الفتاة، وتقول لها:

«هنيئاً لك يا بنيتي هذا الزواج السعيد...»
أما عروس القطن، فقد سحرتها روعة القصة، وحسن بيان
الفتاة ولم تفه بشيء، ولكنها مكثت تصدق صامتة في سيدتها
بعيونها السود ذوات الأهداب العريضة، وظلت تصغي...
وتصغي... ولا تفتأ تصغي...!

على الحيات

كنا في فصل الصيف ، فاشتدت رغبتي في الخروج عصرًا إلى منطقة « الجيزة ، لأقضى ساعة في حدائق « الأورمان ، أنعم بين جدولها الجارية ، وتحت خاتلها الوارفة ، بذلك النسيم الرطب الفواح الذي حُرِمْتُ أن يزورني في مسكني العتيق بشارع محمد علي ، ١ ...

ركبت « الحافلة رقم ٦ ، من ميدان « إبراهيم باشا ، وكانت المركبة خالية ، وعامل التذاكر في الدرجة الثانية يراجع نقوده في خُمول ...

وما إن وقفت « الحافلة ، عند المحطة التالية ، حتى شاهدت رجلا بديننا يدخل مُتَسِدًا الخُطَا ... عرفته في الحال ، وهل يجبهه أحد ؟ ... كلنا يعرفه بشكله وحده ، وقد غاب عنا أن نسأل عن اسمه ... من ينسى هذا الوجه المطهَّم المشرب بالحمرة الدائمة ، وذلك اللُغْدَ «الأرستقراطي ، المدلّي على رقبتة ، وهذا الكرشُ الفخم الذي يسبقه في السير يفسحُ له الطريق ١٩ ...

لا أذكر مرة أنتي ذهبت إلى « جروبي ، إلا وجدته يملأ ركنا

بأكمله ، وأمامه أطباق الفطائر الشهية يأكلها في تلوذ ورضا . ولم أقصد إلى مطعم من المطاعم الشهيرة إلا رأيتُه منفردا بنفسه ، ومائدته تحفيل بالفاخر المتعدد من ألوان الطعام ، وهو يكرع بين الفينة والفينة من نبيذه الطيب ، فكنتُ أتأمله طويلا ، ثم أرمق على مفضل مائدتي عليها الدجاجة المسلوقة ، وزجاجة الدواء الكريه المذاق ...

وقد اتصلت ببني وبينه - لكثرة رؤيتي له - معرفة صامتة لا تتعدى التحية ، مشفوعة بالابتسامة السانحة ...

فإن دخل المركبة ولحني ، حتى بادرنى بتحيته العابرة ، ثم جلس على مقعد قريب من الباب ، وقد اجتمع كرشه أمامه اجتماع الوليد في حجر أمه ...

وكان يرتدي حُلة فاخرة من النيل الأبيض ، ولاحظتُ أنه يداعب بين فترة وأخرى من جيب سترته الأعلى سلسلة ذهبية ، تنهى بساعة ثمينة من الذهب أيضا ، كان يتأملهما في عناية وشغف ، فتأكد لي أنهما جديدتان .

وفي المحطة القائمة في حي « بولاق » صعدت إلى المركبة رجل ضئيل الجسم ، أخذ يدور في المكان بعينه ، فما إن وقع بصره علينا حتى دخل الدرجة الأولى ، وجلس معنا .
واتضح لي من أول نظرة ألقيتها عليه إلى أي الطبقات ينتمي ...

كان في أناقة مبتذلة ، وله عينان كعيني الهر
الجشيع ، وعلى فيه ابتسامة رخيصة لا تفارق شفثيه ...
جلس ، ووضع ساقا على ساق ، وأخذ يسارقنا النظر ، وإذا
أخرج صديق البدين الثرى ساعة ينظر فيها وفي علاقتها
مُعجبا فخورا : - رأيت عيني الهر قد التَمَعَتَا
بوميض تأثر .. ا

منذ ذلك الوقت لم يحول الغريب نظره عن صدر صديق ، وكنا
قد دخلنا منطقة الزمالك ، واستقبلنا نسيم عطري لطيف أخذ
يداهب وجوهنا ، وألقت الصديق البدين يسند رأسه إلى النافذة
ويطبق جفنيه . ولم تطُل به الحال حتى سمعت غطيظا هادئا يصدر
من ناحيته ا ...

وبسطنت أمي صحيفة الأهرام ، وتظاهرت بقراءتها ،
وأنا أرقب الهر مراقبة دقيقة ... كانت حدقتا عينيه تدوران
في حركة عصبية ، فأدثيت الصحيفة من وجهي وأنا أبتسم ، وقد
طغى على شعور طاري ، وهو مزاج من غبطة وشر ا ...
وأحسست الغريب يتململ في جلسسته ، فأرحت رأسي
على النافذة ، وأطبقت جفني متناوما ، وشاعت على وجهي ابتسامة
ضافية ... وبعد فترة شعرت بالهر يدنو في حذر إلى موضع
قريب من صديق الثرى ..

وكان النسيمُ يهبُ مشبَعًا بعطرِ الزَّهرِ العَبِيقِ ، فوجدتُني
أسترسِلُ في أحلامٍ هائلةٍ ، أعرَضُ فيها مناظرَ مختلفةٍ من حياتي ،
كان يعترضها بين حينٍ وآخرُ جسرٌ مُصَدِّقُ البدين وهو منمك يا كل
طعاما ... أو شَبَّحُ الهِر وهو يداعبُ بين أصابعه السلسلةَ الذهبيةَ
بساعتها الثمينة ... !

ولم تَمضُ قِترَةٌ حتى ذهبَ عني التفكيرُ في البدينِ وفي الغريبِ ...
واستغرقتُني تأملاتي الخاصة ، وأنا منتعشٌ بصاني النسيمِ !
وأخيراً أحسستُ ، يدا تهزُّني ... فإذا عامل التذاكر يوقظني
وينبِّئني إلى أننا وصلنا إلى « الجزيرة » ؛ فتعجبتُ من سرعة انقضاء
الوقتِ ، وتأهبتُ للنزولِ ... ووجدتُ أمامي صديقَ الثرى يتهادى
في مشيته ووجهته السلم ... أما الغريب فلم أعثرُ له في العربة
على أثر ...

وشعرتُ بدافعٍ يحفزُني إلى أن أسبقُ الثرى في النزولِ ، ومررتُ
به وأنا أرمقُ جيبَ سترته الأعلى ...

لقد اختفتُ السلسلةُ ومعها الساعةُ وعلتُ في ابتسامه
عريضة أخذتُ تتحولُ سريعا إلى ضحكة عابثة ، وتركتُ
المركبةَ وقد أخذتُ من جيبِ سترتي منسدِلاً أحبسُ به تلكَ
الضحكة ، أو أخففُ من حدتها ، ولكن سرعاناً ما وجدتُني
أحمسُ جيبِي ثم اندفعتُ أفقشُ فيه باهتمامٍ وذعرٍ : أين قلبي

«الباركر، الجديد الذى اشتريته نسيته، ولم أؤد من ثمنه إلاّ الدفعة الأولى؟...»

ووقفت أمسح وجهى المحترق، وأنا أراقب فى عطف صديقى البدين، وهو يتهايل فى مسيره، وقد بدأ الزحام يحتويه . . .

* * *

وتواصلت الأيام ...

وتوثقت بينى وبين صديق الثرى روابط صداقة متينة، فكنت أشاركه بسرور ما تدهته فى المطعم... وصرت لا أتأفف من دجاجتى المسلوقة، ولا من زجاجة الدواء الكريه المذاق ... !

الجتلمان

كنت وصديقي «عزوز» ، إذا طالت جلستنا في القهوة ، ورجبنا في تناول العشاء ، قصدنا «مطعم فورقاتلي» ، بشارع «عدلى» ،... وكنا نفضله على سائر المطاعم — بالرغم من صغره وتواضعه — لعنايته بإعداد بعض الألوان الإيطالية الأصيلة... وأعلن «السيور فورقاتلي» ، أنه سيحدث انقلاباً في مطعمه ، يتناول كل شيء فيه بالتجديد . وذهبنا يوم الاحتفال بافتتاح المطعم في مظهره الحديث ، فلم نزل إلاّ تغييراً يسيراً سطحياً إذا استنيت أمراً واحداً جديراً بالملاحظة ؛ ذلك أن «السيور فورقاتلي» رأى أن ينصب على مقربة من باب المطعم دُمية من ورق مقوّى ، تمثل سيداً أنيقاً يحمل في يده قائمة الطعام ، وكانوا يسلطون على هذه الدمية نورا كهربياً تبدو به بهيجة تستوقف الأنظار .

ووقفت أتأمل هذه الدمية ، فلم ترقى هيئتها ، على ما امتازت به من إتقان في الصنعة .

كانت هذه الدمية تمثل شخصية السيد المتظرف الأنيق
« رجل الصالون العصري » ، وأنيس كل حفلة شائعة ، و« من منا
يجهل هذا المزهُو المتحذلق وهو يخطر في لبوس المحافل
الرسمي » ، ووجهه الأمد مستنير يشبه ابتسامة يختلط فيها الترحيب
بالكبرياء ، وهذا « المونوكل » ، المثبت على حق عينه بمهارة خليقة
بالإعجاب ، وهذه الشَّملة السوداء ذات البطانة الحريرية البيضاء
يسطها على كتفيه في تألق مصحوب بإهمال مقصود ، وأخيرا
هذه اليد المكسوة بالقفاز الأبيض آخذة بمصاً مفضضة
المقبض ، متلاعباً بها . لبثتُ أتأمل الدمية وقتنا وقد شغلتنى
شخصيتها عن قائمة الطعام الماثلة في يدها اليسرى ، ولكن « السنيور
فورفاتي » ، جاء ينهني إلى أن عشاء الليلة يحوى غير « الاسبجتي
النابوليتانية » ، صحناً من « الرافيولي » ، الفاخر ، ثم تركنا ليستقبل
بعض رواد مطعمه . ومِائتُ على صديق « عزوز » أقول وأنا
أشير إلى الدمية :

ما رأيك في هذا الصديق الجديد ؟ ...

— لقد أتى به « السنيور فورفاتي » ، ليستقبل ضيوف المطعم
الآ ترى يده التي تحمل القائمة مشيرة إلى الباب ترشدنا إليه؟
— إنها طريقة جديدة في تكريم الزوار ؛ كأنني أسمع يقول
لنا وهو يدعونا إلى الدخول :

تفضلوا يا سادة ... وبالسُّمِّ الهارى ... ا
وتناولتُ عَشَاقِي وأنا أزدردُ الطعامَ غيرَ شاعرٍ بمذاقه ؛
ذ كنت مشغول الفكر بهذه الدُّمِية الحقيرة . وكيف أتى
لها أن تظهر في هذا اللباس الفاخر ، وألقيتُ مرةً بنظرة في
المرأةَ أمامي فبدت لي حُلَّتِي الجديدةُ ... التي أَدفعُ ثمنها أقساطا
شهرية - غيرَ جديرةٍ بالثناء ... ا

* * *

كنتُ كلما ذهبتُ إلى «مطعم فورقائلي» ، لقيني وجهُ ذلك
«الجتيلمان» الأنيق بابتسامته الكاسفة ، فيرشقُ كلَّ مِمْنًا صاحبه
بنظرة عجلى ، نظرة يتجلى فيها الاحتقارُ والزُّرايةُ ، وما هي إلاَّ
أن أحولَ طرفي في عنه ، وأنا أحتُ خطاى نحو الباب .
وجلست مع صديقى عزوز على مائدتنا المختارة في المطعم ،
نتذوق حَسَاءَ «الميدسترون» اللذيذ . وبغتهً ، رفعتُ رأسي
وقلت :

لو كنتُ حاكما بأمره لَقَضَيْتُ على هذه الفئمة
الفَشُوم ...

فقال عزوز وهو منهك يا كل :

أى فئمة تعنى ؟ ...

- فئمة هؤلاء «الجتيلمين» ، المرابين ... فئمة هؤلاء السادة

المتعطلين . هاته الدمى التي تخفى تحت مظهرها الرشيق رهوساً
خاوية لا يسكنها إلا الصلف والازدراءُ بالناس...
فأجاني «عزوز»، وهو مازال منكبا على حسائه :
ولا تنس أن هذه الفئة هي زينة حياتنا الاجتماعية
العصرية ...!

وأقبل علينا «السنينور فورفانلي»، يستطلع رأينا في حساء
«المينسترون» وقبل أن نجيبه بكلمة انطلق لسانه بحديث
كأنه السيل الجارف يصف محاسن هذا الحساء وجودة
طهوه ...!

وصادفت «عزوز»، مساء أحد الايام في القهوة ، فبادرني
بقوله :

سندهبُ الليلةَ حتماً إلى «مطعم فورفانلي» ، ...!

فقلت له وأنا أخلع طربوشي وأمسح وجهي :

ولم ؟

— لقد مررت به وأنا في طريق إلى هنا فاستقبلني صديقك
«الجتلمان» ، وقرأت في قائمة الطعام التي يحملها في يده أن عشاء
اليوم يحوى لونا من «اللازانيا» .

— «اللازانيا» ؟ ...! إنها لذينة ...!

— لذينة جدا ...!

- ولكن ا...
— ماذا ؟ ...
— ليس لي رغبة في الذهاب ...
— كيف ؟ ... ألسنتَ جاتما ؟ ...
— جائع ... ولكنني ... ولكنني أفضل أكلة طريفة من
الطعمية والفول ...
— لقد سقم ذوقك بلا ريب ، أفضّل الطعمية والفول
على اللآزانيا ، ... ؟
— وماذا في ذلك ؟
— أتذكر أنك كثيرا ماطلبت من «السيور فورقاتلي» هذا
اللون من الطعام ؟ ...
— هذا صحيح ... ولكنني لأحس الليلة رغبة في تناوله ...
وأصررت على رأي فلم أراققه .

* * *

وقلّ اختلافي إلى مطعم فورقاتلي ، فكان صديقي «عزوز»
يمجب من انصرافي عنه وزهدى فيه ، ويسألني في ذلك ،
فأزعم له أن المطعم — منذ تجديده — قد فقد طابعه القديم ،
وفقد مع هذا الطابع ميزته في جودة الطهو وإرضاء رؤّاده .
فكان «عزوز» يحتج على هذا ويستنكره ...
وخرجت مرة من المطعم ، وبينما كنت مارًا عن كتب

« بالجتلمان ، ، إذ عثرت قدي وكدت أسقط سقطة لا تخلو من خطر ، لولا أن أدركني « عزوز ، فاعتدلت في وقتي وأنا أصلح من شأني ، ووقع بصرى على « الجتلمان ، وهو مائل في وقفته الأرسقراطية المتحدقة ، فإذا هو منطلق الوجه في بشرى وانتصار ، وراعتني منه ابتسامة لم ألمحها على ثغره في هذا المظهر الساخر قبل الآن ، وخيّل لي أن شفتيه تتحركان بغمغمة :
« ما أشد غباوتك من رجل غفل !

وشملي اعتقاد راسخ بأن هذا « الجتلمان ، كان سبب سقطتي ؛ أتكون قدمه البني في حذاءها اللامع الأنيق قد امتدت في طريق فأعترتني ؟ ... أو تكون تلك العصا المقوطة ذات المقبض المفضّض قد استطالت واعرضت قدي ؟ ... ودنوت منه وقد رفعت يدي لأهوى بها على خده المصعّر ... ولكنني وجدتني أنتزع قائمة الطعام من يده ، وأنهال عليها أمرقها شر ممزق .. !

منذ ذلك الحادث لم تطأ قدي « مطعم فورقاتلي ، وقابلت « عزوز ، يوماً لحمل إلى خبراً خطيراً ؛ ذلك أن « السنيور فورقاتلي ، أفلس ؛ فلقد كان بمن يضاربون في السوق المسالية فأصابته نكبة فادحة ، فاضطر إلى أن يغلق مطعمه ، ورأيتني أفاجي صديقي بقولي :
« و الجتلمان ، ؟ ...

— إن مصابي في المطعم أكبر من أن يجمعني أهتم بهذه
الدُميَّة ...

— ولكنك تعلم على الأقل ما حل بمتاع «السنيور فورفانلي» ،
— علمت أن كل ما يمتلئ في المطعم قد يبيع بالمزايدة ...
ولم أطل معه الحديث في هذا الشأن ، وفي اليوم التالي قصدتُ
إلى المسكان الذي كان يشغله المطعم ، وطفقتُ أسألُ البوابين
والجيران عمن اشترى «الجتلمان» ، فلم أحظ بجواب ...
وتركتُ المسكان ، وأنا مغیظٌ ...

* * *

وتوالت الأيام ، وبينما كنت ماراً في حارة «جامع البنات» ،
«أمام حانوت» ، كوهين الوراق ، إذ رأيتُ نفسي وجهاً لوجه
أمام «الجتلمان» ، فبُهِتُ ، وأحسستُ لحظةً حيرةً وارتباكاً
ولكن سرعان ما تزايد ذلك عني ، وألقيتُ بنظرة متفحصسة
عليه ، فوجدته يحمل في يده اليسرى لوحاً من الورق المفوّى مثبتةً
فيه بطاقاتُ زيارة في أشكال مختلفة وخطوط شتى ، وكان كعهدى
به يرتدى لبسوسَ السهرة ، وعلى كتفه الشَّملة الثمينة ملقاة
في إهمال مقصود ، وما زال قابضاً بيده اليمنى على عصاه الثمينة ذات
المقبض المفضض ، كان هو هو ذلك «الجتلمان» الأرستقراطي ،
عروس «الصالون» ، العصري ... ولكن شيتنا واحداً لحظته لم
أعهده فيه من قبل ؛ شيتنا راعني وأشعرني بإحساس غريب ؛

هو تلك النظرة التي يرون بها الناس . لقد تضاءلت لمعتها الوهاجة المنطوية على الزهو والصلف ، أما وجهه فقد شاع فيه الشحول والسقم واكتسى بطابع الآسى ، وخيل إليّ وأنا أتفحصه أنه كان يُزيغُ بصره غنى ليتجنبَ مواجهتي ، وكأنه يتملّلُ في وقفته ضجرا . فابتسمتُ وقد انكسبتُ على بطاقاته أتفرج ، وأنا أهمهم :

يا للحظ العائر ! ... من « مطعم فورقاتلي » ، الفاخر في شارع « عدلى » ، إلى ورّاق صغير في حارة « جامع البنات » ... !
وداعبت بعصا عصاهُ ، فشعرت بها تهتزُّ في يده على وشك أن تمحطم . فتركته وهضيت في طريقي ... !

لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أكثر تردددي على حانوتِ « كوهين » ، الورّاق ، فأجعله مكانا مختارا أفضى فيه بعض الأصائل . لعله ذلك الجو القديم الذي يشمل حارة « جامع البنات » وملحقاتها ، حيث يطيب للمرء أن يستعيد ذكريات الماضي المحببة ... أولعله شيء آخر لم أستبته ، وعلى أية حال لا أنكر أنه كانت تحلولى جلستى على المقعد الخشبي الحشن أمام الحانوت أرشف القهوة وأدخن على مهل ، أتمسّس بين وقت وآخر حلقى الجديدة ، فخورا بجودة نسجها وأناقته تفصيلها ، وغير بعيد عنى صاحبنا « الجنتلمان » ، في وقفته التي لا تتغير : يحمل تلى هضضٍ وكره منه لوح البطاطات يعرضه على المارين ... !

وكنّا في مستهلّ الصيف ، قهياً لى الرحيلُ إلى رأس البر ،
وأقمت فيه نحو شهر ، ولما عدتُ قصدتُ إلى دكان الورّاق ، فلم
أر صاحبي « الجنتلمان » في مكانه المألوف ، فسألت « كوهين » ،
عنه فأخبرني وهو لم يغادر مقعده أمام مكتبه ، وأتفه المقوس
الطويلُ يعبثُ في دفتر الحساب ، قائلاً :

لقد ضنقنا ذرعاً به ؛ طالما شكّا المارّة منه ، زاعمين أنه يشغل
حيزاً كبيراً في الحارة ، فيعوقهم في الغدوّ والرواح ...
— وما ذا صنعتُم به ؟

— بعناه .

— لمن ؟

— لشخص لا أعرفه ... رضى أن يدفع لي مبلغاً حسناً عمّاله ...
فركت الحانوتَ على الأثر ، وأنا ضيق الصدر ، وقد تجلّت
أمامى صورة ذلك السيد الأرسقراطيّ الأنيق وهو واقف
في سوق الرقيقِ تتناقله الأيدي كتساع غمك رخيص ، وقد ستر
وجهه بطرفٍ شملته ؛ ليخفي نفسه عن أعين الشامتين ...

وانقضتُ بضعة أشهر كدتُ أنسى فيها حوادث صاحبي
« الجنتلمان » ، وبينما كنتُ أمر بجارة « بين الصورين » في
« الموسيقى » ، إذ شعرت أن يداً تأخذ بطرفِ سترقي ، فالتفتُ
فلم أر إلا كومة من الملابس البالية موضوعة على شبه مشجب
أمام حانوتٍ من حوانيت بيع المتاع القديم ، فلم أعنّ بالأمر ،

واعترزت مواصلة سيرى ، غير أنه استرعى نظرى على حين
بعته هناة تشبه اليد فى ققاز أبيض قدر ظهرت من بين الملابس ،
وتصور لى أنها كانت تضطرب ؛ كأنها تستوقفى ، فمادت
أدراجى وقلبي يدق ، ومضيت على الفور أرفع كومة الملابس
عن المشجب ، فبان لى رويدأ صديقى «الجتلمان» ... يا لله ...
ما أشد شحوبه ، وما أكثر تجاعيد وجهه ... ورايته كأنه
يتنفس الصعداء ، ويحاول أن يرفع قامته المقوسة التى حناها
وأذلها وقر تلك الملابس القديمة ... وقفت أتأمله فى حسرة
وحيرة لا أجد من نفسى الشجاعة على الدنو منه ... لقد كان كل
شئ فيه ينطق بالبؤس والفاقة ؛ شملة ممزقة ، وكسوة قذرة
حاثت فيها يد التخريب ... وعصاه الثينة لم يبق منها غير مقبضها
الفضى الحائل ، حرص على أن يبقية فى يده ذكرى لحياة
العز والسؤدد ... و «المتوكل» ، لم أر له أثرا ... ولكن كل
ذلك لم يعد شيئا مذكورا إذا قسناه بما دهم عينه ... يا القدر
القاسى ... لقد أصبحتا متقويتين ؛ فهل فقدت حاسة الإبصار ؟ ...
وأخيرا وجدتنى أدنو منه بخطا هينة ثم أطبقت يدي على يده
وظفقت أهزها فى حنو وإخلاص ، فأحسست شفثيه تحتلجان
بابتسامه مكشبة ، وكان جفنيه انطبعا ، وانحدرت منهما قطرتان
لا معتان ...

وفى لحظة ألفيته ينهار أمامى ويصبح كومة من الانقاض ...

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	١ - شفاه غليظة
٣٦	٢ - القبلة الثالثة
٦١	٣ - ملاريا الحب
٨٨	٤ - حكام من السماء
١٠٣	٥ - ولي الله
١٢٦	٦ - كلب أسعد بك
١٤٣	٧ - قبلة الساق
١٥٧	٨ - أبو علي ، وزجاجة الكونياك
١٦٤	٩ - الطابور الخامس
١٧٢	١٠ - البسدليل
١٨٩	١١ - النرام رقم ٢
٢٠٦	١٢ - اليومنة تنفق
٢٢٠	١٣ - ليلة العرس
٢٢٥	١٤ - على الحيات
٢٣٠	١٥ - الجتلان

